A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

PHILIP HITTI COLLECTION

تقدمة من المؤلف الى حضرة الاد
الكبير الاستاذ السيد فيلب
ط ٩٢٦

مع الرجاء ان تتلطف لطفه في هذا الكتاب والكتاب الثاني برفقه
وما اذا كان يوافق ترجمة احدهما للغات اجنبية نظرة حضرة الدكتور فيليب
لأنه اكبر فيصة لدى المؤلف فيما انتج
توفيق حسن نادر الشرتوني لطفه على الفضائل التي تقدم اشكر

بيروت شارع المصايف
على فضل مكتب المهندس خليل افندي

892.78
Sh562hkA
c.1

الحكيم وسلمى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٣٣

ليس-13061

رسم المؤلف

مقدمة الكتاب

ليس كتابي هذا كتاباً خيالياً ولا هو فقط كتاب الحكيم وسلمى وانما هو بالحقيقة كتاب كل فتى وفتاة وكل رجل وامرأة. لأن الطبيعة البشرية واحدة لا تتبدل ولا تتغير يشعر بها كل الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم واجناسهم

فكما شعرت سلمى بالحب وخبرت مشاكله ومتاعبه هكذا تشعر معظم الفتيات وكما علق الحكيم هكذا يعلق معظم الرجال

ولهذا السبب وضعت هذا الكتاب الذي تدور مباحثه عن المحبة الجنسية وما يتخللها من الالفة والجفاء والامل والعناء واليأس والرجاء

وبما انني درست العاطفة الانسانية درساً مستفيضاً وسبرت غور نزعاتها واميالها وعرفت اسباب ضعفها وعوامل آلامها ويأسها جئت بكتابي هذا ناصحاً مرشداً الى طريق الخير والراحة والطمأنينة.

ولم اعتمد في كل ما دبجه يراعي الأعلى ما خبرته بنفسي ولاحظته بسواي

وليعلم ابناء امي انني في كل ما اكتبه ليس لي رائد سوى رائد الخير وليس لي شعار سوى شعار الاصلاح الاخلاص

وما قصة الحكيم وسلمى التي تملأ كتابي هذا سوى قصة واقعية تحدث في كل آن وفي كل زمان

عسى ان يعيرها الناس التفاتهم و يتدبّرونها بامعان وتبصر آملاً ان تكون عظة للماشقين وتعزيةً لليائسين وسلواناً للمنكوبين

شرتون في اول آب سنة ١٩٣٣

نرفيس عبد نادر
الشرتوني

٥

الحكيم

على طريق النزهة

في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ بكر الحكيم عَلَى عادته للتنزه في ضواحي مدينة بيروت ، واجتاز طريق الاشرفية الى ان بلغ معامل السيوفي .

فوقف حيناً على تلك الربوة الجميلة متأملاً في مشاهد الطبيعة الفتانة المتناقضة .

وكان السحاب في تلك الاونة يغمر البحر ثم اخذ يعلو شيئاً فشيئاً فوق السهول والجبال والوهاد . وما هي بضع دقائق حتى ملأ الافق وحجب نور الشمس عن البصر . ثم جاء ببروقه ورعوده ينذر بدنو العاصفة .

فتلفت الحكيم متطلعاً في ما حوله ليرى اقرب منزل او مغارة يأوي اليها من غضب المطر الزاخر فشاهد خيمة قائمة عَلَى بضع خطوات منه . وما ادركها حتى اخذ المطر يتساقط غزيراً كأنه من افواه القرب .

٦

في الخيمة

هناك في داخل الخيمة جلس الحكيم على مقعد من الحجارة امام نافذة مطلة على البحر والنهر والصرود والاودية ·

اجال طرفه اولاً في السهول والجبال المجاورة متأملاً في الغيث المنهمر عَلَى كل مكان · فخيّل اليه كأن المطر يرمي الى غايتين : الاولى انعاش الطبيعة واحيائها كافة · والثانية اتخاذه طريق الرجعة الى مصدره البحر ·

اجل ان الغيث المنهمر على سطح الارض لا يلبث ان يتغلغل في قلبها فيؤلف البرك والبحيرات التي منها تنبثق الجداول والانهار الجارية الى البحر ·

ثم تلفّت الحكيم في الخضم الراسي عَلَى اقدام لبنان فشاهد بعض الغمام يغرف منه ويمطر به ·

ورأى البعض الاخر يمطر على اليابسة بالقرب من البحر ولا يلبث ماؤه حتى يعود اليه ·

وشاهد مطراً آخر يسقط في الصحاري المرملة والاراضي الجدباء · ومطراً يقع على الارض الجيدة والاماكن الخصيبة ·

فقال في نفسه : هذا المطر الاخير هو وحده يؤدّي الى الغايتين غاية ارواء الارض وغاية رجوعه الى مصدره .

ثم اخذ يتأمل في الناس فرآهم يشبهون المطر كل الشبه .

فالطفل الذي يقضي اثر ولادته يشبه قطرة الماء التي تخرج من البحر وتقع فيه .

والطفل الذي يعيش قليلاً يشبه المطر المتساقط بالقرب من البحر ولا يلبث ان يعود اليه .

والبشر الذين يؤلفون الامم والشعوب يشبهون من كل الوجوه الامطار التي تؤلّف في قلب الارض البرك والبحيرات

وكما تتولد من اولئك الامم الجيوش والكتائب والجماعات المتعددة . هكذا تنبثق من تلك الخزّانات المائية الينابيع والجداول والانهر التي لا عداد لها .

والبشر الخاملون الذين يعملون في حياتهم عملاً مفيداً يشبهون المطر الساقط في الصحراء ولا يرجى منه نفع .

اما الناس العاملون النشيطون فهم بحق يشبهون الغيث الواقع على الارض الجيدة والاماكن الطيبة .

ان غاية الحياة تكمل بمثل هؤلاء البشر النافعين كما تكمل بمثل هذا المطر النافع ·

وكما ان جداول الماء الجارية حتى في الاماكن السحيقة تعود مهما كلفها الامر الى مصدرها البحر · هكذا الناس مهما طالت حياتهم على الارض يعودون الى صلبها ·

وكما تخسر الجداول حياتها الاستقلالية بعد انضمامها الى البحر ولكنها تبقى حية به · هكذا الانسان بعد انضمامه الى امه الطبيعة يخسر حياته الفردية لكنه يحيا بها ·

سلمى في الخبز

وبينما كان الحكيم في هذه التأملات اذا بفتاة في مقتبل العمر على جانب وفير من الجمال تدخل الخيمة والمطر قد بلّل ثيابها وعلامات الحزن العميق مرتسمة على محياها · ولما رأت رجلاً جالساً هناك ذعرت وهمّت بالرجوع ·

ففاجأها الحكيم قائلاً : الى اين تذهبين والمطر هتون والعاصفة شديدة الهول · اجلسي هنا ولا تجازفي بنفسك ·

اجلسي الى ان تسكن الزوابع وتنفرج السماء قليلاً فعندئذٍ تذهبين الى حيث تريدين ·

فوعت كلامه وجلست بقربه خافضة الرأس مستسلمة لهواجسها وتخيلاتها .

مرت ساعة وهي مطرقة الى الارض لا تعير الرجل الجالس بقربها التفاتاً ولا المطر الساقط امامها اهتماماً .

وكانت عيناها غير مفتحتين ولا مغمضتين لكنهما هائمتان في الارض كانهما تنشدان خيالاً عميقاً .

كانت والحق يقال كأنها مستيقظة نائمة تمثل في سكونها رواية حلم مزعج تتخلله بعض المشاهد الرائعة .

كانت تارة تتنهد تنهداً بعيد الغور وتتمتم بعض كلمات غير مفهومة وطوراً كان يبدو على ثغرها بريق ابتسامة لا تلبث قليلاً حتى تفارقها كأنها تحمل احدى تذكارات هنائها القديم .

حديث التعارف

وكان الحكيم في تلك الآونة يسارقها النظر ليستطلع دخائلها لعله يكتشف شيئاً مما تضمره وراء هذه المظاهر المتناقضة

فادرك شيئاً من مكنونات صدرها ثم اراد مكالمتها لتبوح له بما في نفسها لعله يرشدها الى ما به خيرها وهناؤها .

فخاطبها قائلاً : ما بالكِ ايتها الفتاة تحدقين في الارض سابحة في بحر من التأملات والهواجس

ارفعي نظرك قليلاً وابصري جمال الطبيعة المحيطة بكِ .

تأملي في السماء والماء — سرحي طرفك في هذه العصافير الجميلة التي قامت تستقبل المطر بفرح وحبور . الا ترينها تزقزق متنقلة من غصن الى غصن مبتهجة في تغاريدها وشدوها .

تأملي في الاشجار كيف تتهادى وتتمايل تجاه العواصف . فكما ترينها ترقص الان امام المطر في اوراقها وغصونها هكذا تتهلل في داخل جذوعها .

ان البذور المائتة في جوف الارض تشعر الان في داخلها بابتسامة الحياة لان المطر هو الذي ينعشها ويلقي في قلبها تلك الابتسامة المحيية .

فلماذا انت لا تنتعشين في قلبك كما تنتعش جذوع الاشجار وبذور الارض ؟

كل ما في الطبيعة يبسم للمطر الذي هو ماء الحياة فلماذا لا تبسمين ؟

سلمى — دعني وشأني ايها الرجل

الحكيم — صرّحي ايتها الفتاة بما يؤلمك لعلني اسرّي عنك بعض الغم. فانا من الذين يبكون مع الباكين ويستأنسون بالمفجوعين واليائسين

سلمى — لا اشك بنبالتك وحسن مباديك لكني ارجو منك ان تتركني الان اناجي نفسي في سكونها . دعني احمل وحدي اثقال همومي وهواجسي لا تطلب مني افصاحاً لان الافصاح يزيدني شجواً والماً

الحكيم — افصحي بربكِ ولا تخافي لان الافصاح امام رجل عاقل يعمل عَلَى تخفيف آلام الانسانية يزيدكِ راحةً لا ألماً .

صرّحي عن كلوم نفسك لعلي احمل اليها بلسماً شافياً واشرحي عن اسباب دائك لعلي اصف له دواءً ناجعاً .

سلمى — مالك ومالي ايها الرجل ان دائي عضال لا يشفى . لقد تأصلت جراثيمهُ في لحمي ودمي وفي كل عرق نابض من عروقي حتى امسيت لا اعتقد بانني فتاة تحمل داءً بل يخيل اليَّ انني الداء بعينه .

الحكيم — لا تقنطي ايتها الفتاة .

سلمى — كيف لا اقنط يا صاح وانا الفتاة التاعسة التي ودعت صفو عيشها وحلاوة ايامها وداعاً ابدياً .

انا العاشقة المنسحقة القلب المبتلاة بداء الحب المصابة باحدّ سهم من سهام الجفاء والخيانة .

لقد امسيت كالهشيم المحترق في مهب الريح . فكما انه لا يخمد سعيره حتى يصير كل ما حوله رماداً . هكذا قلبي لا تخمدناره حتى يحوّل جسدي تراباً .

الحكيم — ليس الحب بطبيعته داءً بل دواءً ايتها الفتاة . فهو ليس كما تعتقدين مبعث الالم والشقاء بل هو مورد من اعذب موارد الرجاء والاماني .

اما الجفاء والخيانة وهما الداءان اللذان يفتكان بالحب فلست انتِ المصابة بهما بل حبيبكِ .

ان هذه السهام التي تصيب فؤادكِ الآن وتشعرين بشدة كلومها وآلامها ستنقلب عما قليل فتصبح بلسماً على قلبك وجراحاً دامية في قلبه .

سلمى — لا ، لا ارجو عذاباً لمسبب عذابي ويأسي . بل كل ما اتمناه الان ان يمن الله عليّ ولو بالنزر اليسير من وميض املي المفقود وبريق رجائي الضائع .

ما اتعسني فتاة قضي على احلامها وامانيها .

الحكيم — ان مسالك الغرام وعرة كثيرة العقبات فلا بأس عليك ان كنتِ في اجتيازها قد فقدتِ كل رجاءك . اذ كثيرهم الذين

في مقتبل اعمارهم يضلون مثلك عَلَى هذه الطريق . وانا واحد من هؤلاء الذين ضلوا منذ عشرين سنة وخسروا كل امل ورجاء .

ولم يمض زمن طويل حتى وجدت رجاءً اشد لمعاناً في القلب من ذاك الذي خسرته وامانيي اكثر روعة للنفس من تلك التي فقدتها . ولهذا السبب انصحك الا تستسلمي لليأس فقصي عليَّ الان حديث غرامك وانا اعود فاخبرك ببعض ما وقع لي في حبي وكيف كنت اعتقد نفسي اكثر خلق الله عذاباً وألماً واشدهم تعساً ويأساً .

اعلميني مفصلاً بداء غرامك وسبب آلامك وغداً أُعلمك كيف داويت غرامي وانتصرت على يأسي وآلامي . لعل تجاربي تكون لك بمثابة عظة وعبرة .

سلمى تقص حديث غرامها

الابتسامة الاولى

في اوائل شهر اذار سنة ١٩٢٨ شعرت لاول مرة في حياتي بدبيب داء الحب في عروقي . وكان عمري حينذاك ستة عشر ربيعاً .

كنت في كل صباح احمل كتبي واذهب الى المدرسة ناعمة البال لا همّ لي غير درس مثائلي واتقان فروضي .

و كنت من النابهات المجتهدات في العلم ومن الطالبات اللواتي يشار اليهن بالبنان في حسن سلوكهن وكمال اخلاقهن .

وكان اولياء المدرسة يطرونني الثناء عَلَى فضائلي واجتهادي

و كنت يوماً اقطع الطريق المؤدية الى المدرسة فالتقيت بفتى جميل الطلعة عرفت بعدذاك انه طالب في مدرسة الحقوق و كنت سابقاً اصادفهُ مراراً دون ان اعيره التفاتاً . ولكن هذه المرة لا اعلم ما حل بي منذ اكتحلت عينه بعيني . لقد شعرت بنفسي كأنني مسست سلكاً كهربائياً حينما حياني مبتسماً تلك الابتسامة المعنوية التي ملكت لبي ومشاعري ولم تزل حتى الان تملك كل جوارحي وحواسي .

دخلت المدرسة ذاهلة العقل والبصر وجلست الى منضدتي بين الطالبات لدرس مثائلي . ولكن لسوء الحظ شعرت بانني لم اعد املك ذهني الذي طلقني وسرح يتبع خطوات هذا الفتى المتأنق الجميل مفكراً بابتسامته المعنوية الخلابة .

حان ميعاد الدرس العربي فتأبطت كتبي ودخلت الى صفي

و بعد ان جلست كل فتاة الى منضدتها وتلا جميعهن الصلاة المعتادة اخذ المعلم يسأل كل طالبة عن امثولتها وفرضها . ولما انتهى المعلم اليّ قدمت فرضي لكني تلعثمت عَلَى غير عادة في القاء امثولتي

فذهل الاستاذ لذلك لانه كان يعهد فيّ الاجتهاد والكفاية وسألني هل انت مريضة ؟ فاجبته نعم اني اشعر ببحران مع اني لم اكن احسّ ساعتئذٍ الا ببحران الابتسامة الاولى من حمّى الحب .

اجل لم انطق بالحق لان تلك الابتسامة التي نفذت الى اعماق نفسي وفتحت امامي باب الحب على مصراعيه هي ايضاً فتحت باب الكذب امامي . فكذبت على استاذي ثم اخذت اكذب فيما بعد عَلَى ولية المدرسة وعلى والديّ ورفيقاتي وسائر معارفي

غابت شمس ذلك النهار فافلت راجعة الى البيت . وما كدت الج باب المدرسة الخارجي حتى شاهدت ذلك الفتى الجميل واقفاً امامي محيياً مبتسماً . فاطرقت حياءً وخجلاً واشتد وجهي احمراراً لكني لم ابادله التحية حذراً من ريب رفيقاتي رغماً عن كونها وقعت في نفسي موقعاً عظيماً وفعلت فيّ اكثر مما فعلته الابتسامة الاولى .

وصلت الى البيت مرتبكة في امريء وحائرة في نفسي .

فقابلتني امي بكمال عطفها وحنانها ·

اما انا فلم استطع رغم اجهادي النفس ان اقابلها بلطفي العادي لاني شعرت كأنّ عاطفتي البنوية قد ضئلت او بالاحرى تلاشت ازاء عاطفتي الجديدة الغرامية التي احتلت فؤادي ومعظم حصون ذهني ·

فقالت امي : ما بالكِ تخاطينني بفتور و برودة هل انتِ مريضة ؟ او حدث لكِ ما يشغل ذهنك ؟ فاجبتها كاذبة : اني اشعر بصداع خفيف في رأسي فوضعت يدها عَلَى جبهتي ثم قالت لا تخافي الزمي راحتكِ قليلاً فيزول الملكِ ·

فدخلت غرفتي واستلقيت على فراشي ثم اخذت اتخيل فتاي الجميل متأملة في تحيته الساحرة وابتسامته الفاتنة · فشعرت بفرح الحب يستحوذ على حواسي · ثم اخذت الوم نفسي لوما عنيفاً لجبني عن مبادلة التحية والابتسامة ·

وبينما انا كذلك دخل والدي وكانت امي قد اخبرته عن حالتي · فتقدم اليَّ وجس نبضي ثم وضع يده على راسي فلم ير اثراً للحمى فهش لي واخذني بيده الى المائدة ·

لكنني لم اذق في تلك الليلة مأكلاً لان طعام الحب الذي تناولته

جديداً كان اشهى على قلبي من كل طعام .

ولا ازال اذكر اننا في تلك الليلة استقبلنا بعض العيال التي جاءت لزيارتنا فحُكم عليّ ان اعزف على البيانو وانشد بعض مقاطيع غنائية كنت اجيد عزفها وغناءها . لكنني في تلك السهرة لم أجد عزفاً ولا غناء .

فاعتذرت امي لصديقاتها عن قصوري وعزت ذلك الى توعك صحتي .

وفي الساعة الحادية عشرة ودعناضيوفنا فذهبت تواً الى فراشي واخذت احمل نفسي على النوم فلم استطع ان انام .

وقرعت الساعة الثانية عشرة ثم الساعة الاولى بعد نصف الليل ثم الثانية ولم ازل هاجعة متأملة في هذا الشاب .

لقد كان يتراءى لي في قده الجميل وبزته الانيقة وصوته الموسيقي العذب ونظراته الفاتنة كأنه ملك في شكل انسان .

وفي منتصف الساعة الرابعة غالبني النعاس قليلاً فاستسلمت الى سلطان الكرى ثم استيقظت في الساعة السادسة . بيد اني كنت في خلال الساعات الثلاث التي رقدتها احلم به دائماً .

وفي الساعة السابعة تأبطت كتبي ومشيت الى المدرسة على

عادتي وعند ما شاهدته على قارعة الطريق تكهرب جسدي وغلا دم الحب والخجل في عروقي . ثم اقترب مني وحياني بصوت منخفض قائلاً : اسعدك الله يا ملكي . فلم اجب على هذه التحية الساحرة التي نفذت الى اعماق كياني لان الحياء غلبني ايضاً هذه المرة فبقيت خلال الطريق شاخصة في الارض دون ان انبس ببنت شفة .

اما هو فظل يتبع خطواتي الى باب المدرسة

وفي صباح ذلك النهار لم افتح كتاباً ولم ادرس شيئاً لاني كنت اسيرة الاحلام والهواجس شديدة الاستياء من نفسي . فقمت انحي عليها باللائمة واعنفها تعنيفاً شديداً لخجلها وجبنها . ثم اخذت اعد عدتي متسلحة بكل ماعندي من الجرأة والشجاعة مقسمةً ان احيي هذا الفتى عند اول فرصة تسنح لي .

حان الظهر فتباطأت قليلاً عن الخروج من المدرسة حتى انصرفت جميع الطالبات ثم خرجت وحدي على امل الالتقاء به فوجدته على انتظاري ثم مشى بجانبي وحياني كعادته . فلم استطع جواباً رغماً من القسم الذي اقسمته والجرأة التي اعددتها . فمشيت مطرقة ومشى ورائي ينفحني بزهرات حبه .

وشعرت في خلال الطريق بهول الحرب المستعرة في داخلي بين الخجل والحب .

وما كدت ابلغ عتبة البيت حتى ابتدأ الحب يكتسح حصون الخجل . فرفعت عندئذ نظري لحظة وحييت فتاي باسمة باحناء رأسي .

وكانت تلك التحية الباسمة هي الصلة الاولى المباشرة من صلات الحب والتعارف

الحكيم — اني جد مرتاح الى حديثك اما الان وقد تبددت العاصفة واصبح النهار في ظهيرته فلنغتنم الفرصة للعود الى منازلنا واذا كان الجو غداً صافياً فسنلتقي هنا ان شاء الله وتعودين الى اتمام حديثك .

ثم ودعها ومشى الى بيته وذهبت سلمى في سبيلها .

اليوم الثاني

استيقظ الحكيم في اليوم الثاني و كان الجو صافياً جداً فتناول طعام الصباح ومشى سالكاً الطريق الذي سلكه امس .

ولما وصل الى معامل السيو في شاهد الفتاة سلمى عَلَى انتظاره . فحياها باسماً ثم قال لها : ما حسبتك تبكرين في مجيئك لاني جئت مراراً الى هذا المكان في مثل هذه الساعة ولم اصادف بشراً . وكنت دائماً اتمتع بمشاهد الطبيعة لاهياً بتغريد العصافير الشادية في فجرها و ببرأى الحشرات المتنوعة السارحة في طلب رزقها . وكثيراً ما كنت اقف وحدي متأملاً في قطرات الماء العالقة باوراق بعض الاشجار الجبارة .

تعالي معي الان وانظري تلك الاوراق كيف تحضن قطرات الندى فهي تفعل ذلك محافظة عَلَى كيانها لا لاجل صيانة تلك القطرات لانها تذبل وتجف حين ينضب ماؤها .

هكذا الجسد يحضن النفس و يحافظ عليها بكل قواه لا لاجلها بل لانه يندثر حين تغرب عنه .

سلمى — يظهر لي انك من الفلاسفة الحكماء فاسمح لي من الان فصاعداً ان ادعوك حكيماً .

الحكيم — لا لست الا رجلاً ساذجاً وهبت قوة الملاحظة والاكتساب فانا ادرس على امي الطبيعة واتلقن منها بعض المعارف كما يتلقّن الطفل النطق من امه بملازمته اياها .

ان الطبيعة هي مدرستي وهذا الكون الفسيح بكل ما فيه من كبير المادة وصغيرها هو استاذي .

والان مالنا وهذا الموضوع فلنعد الى حديث حبك

الحديث الاول

سلمى — مضى ايها الحكيم ثلاثة ايام بعد تحيتي له دون ان اراه . فجزعت جزعاً شديداً واخذت اتساءل لماذا كل هذا الجفاء ؟ اتراه استاء مني لعدم محادثتي اياه ؟ ام اصابه مرض اقعده عن لقائي ؟ ام ذهب الى خارج المدينة ! ام سبته احدى الفتيات الجميلات فنسيني .

وكنت بالحقيقة لا ادري ماذا اجيب نفسي الهاجسة به . فملكني الغم الشديد وظهرت بوادره على وجهي حتى امسيت لا اقوى على اخفائه . وسألتني مراراً امي و بعض معلماتي ورفيقاتي عن

سبب غمي و كنت دائماً اتكلف الابتسام امامهن مجيبة بان لاشيء يغمني .

وفي صباح اليوم الرابع ابصرته عند خروجي من البيت فاختلج قلبي فرحاً وسروراً ثم اقترب مني وحياني فبادلته التحية . ثم اخذ يسألني عن اهلي وعن المدرسة وهل انا ناجحة في العلم وكم عمري ؟

و كنت اجيبه على كل ذلك بصوت مفعم خجلاً وحياء ثم سألني عن اسمي فقلت له : انا سلمى ابنة راجي كمال وانت ما اسمك وما هي صنعتك فاجابني فوراً كامل عوض طالب في مدرسة الحقوق

ولما اقتربنا من المدرسة تفرّس بي قليلاً وقال : انا احبكِ يا سلمى فهل انت تحبينني ؟ فلم اجبه .

ولما حان الظهر خرجت من المدرسة وتلفّت يمنة ويسرةً فلم اجده بانتظاري كعادته بيد اني لم البث طويلاً حتى التقيت به في منتصف الطريق . فرافقني ثم اعاد عليّ سؤاله الاول « انا احبكِ يا سلمى فهل انت تحبينني ؟

فبقيت صامتة ايضاً لكن اسرّة وجهي كانت تظهر رغم صمتي

التام انني اكثر منه محبة وانشغافاً ..... فشعر بذلك ثم قال لي : اين تريدين ان نلتقي ؟ فأجبته لا ادري . قال : أتعرفين اين تقوم معامل السيوفي ؟ قلت : نعم . قال : اذن هناك اود ان نلتقي ظهر الخميس اذ لا واجب مدرسي عليكِ . هناك نكون بمعزل عن الرقباء ونتحدث طويلاً . فامتثلت امره .

اللقاء الاول

والان تعال معي ايها الحكيم أدلك على المكان الذي التقيت به لاول مرّة في حياتي .

فرافقها الحكيم ومشيا بضع خطوات الى ان وصلا الى قرب شجرة من الصنوبر قديمة العهد . فوقفت هناك واومأت بيدها قائلة :

هنا تحت ظلال هذه الشجرة كان لقاؤنا الاول . اجل هنا جلست بجانب حبيبي واطلقت العنان لعينيّ كي تتمتعا بملامحه الجميلة .

هنا ثملت من رحيق لطفه وخمرة حديثه ذلك اللطف المتناهي الذي لم يكن ينم ساعتئذٍ إلاّ عن حب طاهر وهوى عذري . وذلك

الحديث العذب الذي لم يكن يدل في البداية الا على محبة خالصة ووفاء تام .

ان هذا المكان ظل مدة طويلة مركز اجتماعنا ولهذا السبب هو عندي احب مكان تحت الشمس .

والان كلما هبّت في قلبي اعاصير الحب والغرام احج الى هنا الى هذه البقعة التي هي بيت مقدس حبي . فاتخيل حبيبي كأنه جالس امامي فاتذكره واتذكر ماضي حبه واويقات لقائه فتنعشني الذكرى .

في المرة الاولى لم اجيء وحدي الى لقائه في هذا المكان بل اصطحبت صديقتي المخلصة هند التي كانت رفيقتي في المدرسة وامينة سري كما كنت امينة سرها

في هذا المكان عرفت الحب وتعلمت الغيرة في الحب . لاني شعرت بالاثنين معاً يمعنان في قلبي .

كان حبيبي في تلك المقابلة يمازح احياناً رفيقتي ويخاطبها بلطف وبشاشة فكنت اشعر بنار الغيرة تستعر في صدري كما كنت اشعر بنار الحب تلتهم قلبي .

ان الصداقة المتينة التي كانت تربطني بها منذ الطفولة اخذت

تتلاشى سريعاً من قلبي عند ما ابتدأت تلك الغيرة الطائشة تظفر به .

ومحبتي الخارقة لها اوشكت تنقلب الى بغض اليم وحقد ذميم .

فقلت في نفسي : يا ليتني لم اصطحب رفيقتي اذ يجب ان اتمتع بحبيبي وحدي .... وهكذا كان

الحكيم — ان ما حدث لكِ من عوامل الحب والغيرة يحدث لأي كان من العاشقين .

ان الحب والغيرة توأمان يولدان في القلب معاً ويموتان معاً

اللقاء الثاني

سلمى — وقبل غروب الشمس ودّعت فتاي وذهبت ورفيقتي الى البيت ولا تسل كيف قضيت ايام الاسبوع — لقد قضيتها وانا على احرّ من الجمر منتظرة بفروغ صبر بزوغ شمس الخميس كي اجيء وحدي لألتقي بحبيبي الذي لم يبرحني خياله لا في الليل ولا في النهار

ولما حان الاوان اتيت الى هذا المكان قبل الموعد بقليل واخذت اتمشى منتظرة قدوم هذا الفتى الذي لم اكن منذ قليل

اعرفه ولم احلم به قط . فاصبح ولا ادري كيف اصبح في حين قصير احب الناس اليّ واعزهم على قلبي . بيد اني كنت قبل معرفته لا احس بمحبة تعادل محبتي لابي ولا بحنين يوازي حنيني لأمي .

لمحته عن بعد آتياً فمشيت على غير هدى الى لقائه مسيرة بقوة الحب الذي كان يدفعني اليه .

ولما اقتربت منه حياني ثم امسك بيدي واتى بي الى جذع هذه الشجرة . فجلسنا ههنا واخذنا نتجاذب بكل صراحة وطمأنينة احاديث الحب ونظراته .

شعرت في تلك الساعة بلذة سامية لم اشعر بمثلها في ماضي حياتي ولا اقدر ان اعبّر لك عنها بلساني ويكفي ان ادلي اليك بان مخيلتي لم تتصور لذةً تعادلها جمالاً ولم يرسم ذهني اوقع منها في النفس .

والان اذا جئت اروي على مسامعك بعض تلك الاحاديث التي كنا نتبادلها اثناء اجتماعنا والتي كانت تولد في نفسي هذه اللذة النادرة المثال لرأيتها كلها تافهة جداً لا قيمة معنوية لها لانها لم تكن لتزيد على بضع كلمات متقطعة كان يرددها كل واحد منا على مسمع الاخر تكراراً وهذا مثال منها :

يا حبيبتي الجميلة — يا ملكي الحارس — احبك — اموت بحبك — الى آخر ما هنالك من الالفاظ المترادفة التي لا رواء لها ولا معنى .

ان هذه الاحاديث الساذجة لم تكن بالحقيقة لتنتج امثال هذه اللذة الفائقة لو لم يكن ما وراء الحديث ما هو اسمى من الحديث .

اجل كان الحب الراتع في جوانحي والمالك سعيداً في قلبي هو وحده يغمرني بتلك اللذة الخالصة .

الحكيم — لا انكر عليك ان لذة الحب هي امتع لذات الحياة واكثرها شعوراً واحساساً . لكن الحب ليس عَلَى لون واحد كما تعتقدين بل هو على الوان متعددة .

اما انت فلم تتعرفي حتى الان إلاَّ الى لون واحد من الوانه . ولهذا السبب لم تتمتعي الا بلذة واحدة من ملذاته .

ان من يذوق لوناً واحداً من الوان الحب لا يكون قد ذاق كل الحب .

ولا يخفاكِ انه لم يزل هنالك من انواع المحبة ما هو اسمى

وامتع كثيراً مما عرفت وتذوقتِ . وساشرح لكِ كل ذلك بالتفصيل فيما بعد .

والان حان موعد رجوعي الى البيت فاستميحك عذراً واودعك على امل اللقاء في الغد وارجو منك ان تعودي الى منزلك مطمئنة واثقة ايضاً ان ساعة الفرج اصبحت قريبة منك باذن الله .

ذهب الحكيم ادراجه وبقيت سلمى وحدها في هذا المكان الى ساعة متأخرة وهي تتأمل في كلامه عن الحب وعن الوان الحب

ثم اخذت تسأل نفسها بمرارة والم قائلة : اذا كان لون واحد من الوان الحب قد هدّ كياني وقضى عَلَى راحتي وهنائي فما ذا عسى تكون حالتي لو تذوقت سائر الوانه .

اليوم الثالث

وحدة ومناجاة والم

في صباح اليوم الثالث لم يبرح الحكيم بيته لان الجو كان مكفهراً و كان الطقس ممطراً والبرد قارساً .

اما سلمى فلم تعبأ برداءة الطقس واشتداد المطر والبرد وجاءت عند الفجر الى هذا المكان وجلست في ذات الموضع منتظرة قدوم الحكيم لتلقي على مسامعه ما تبقى من رواية غرامها وتبث له شكواها وانينها .

مضى بعض النهار ولم يزل الغيث منهمراً والغيوم متلبدة في الافق فقطعت سلمى كل امل من مجيء الحكيم واشتد حزنها . و كأن السماء الدامعة اوحت اليها ان تذرف الدموع فاخذت تبكي بكاء مراً . ثم انطلقت تناجي خالقها قائلة :

يا الهي ! السماء تبكي بدموع الغمام وانا ابكي بدموعي فهل يعقب بكائي فرح نفسي كما يعقب بكاء السماء فرح الارض ؟ .

هل انا كثيرة الاثم لاستحق هذا النير الثقيل الذي وضعته الحياة على عاتقي ؟

يا يسوع ! انت حملت صليبك لاجل العالم وانا احمل صليبي لاجل الحب .

انت كان الرجاء المالىء قلبك يخفف عنك نير عذابك اما انا فلا رجاء في قلبي يلطف نار يأسي .

انت جاءك الموت عاجلاً واراحك من حمل صليبك . اما انا فالموت بعيد عني ولا ادري الى متى احمل صليبي .

ربي ! بماذا اخمد نار الحب المضطرمة في احشائي ولا ارى من حبيبي غير الجفاء !

والجفاء حطب يابس يزيد نار حبي اضطراماً .

بماذا اداوي كلومي ولا ارى بقربي غير سهام الخيانة التي تنكأني من كل جانب فتزيدني جراحاً

ما ذا اعمل لارد كبشي الضائع الى حظيرة حبي !

قيل لي ان ذئبة بشرية استأثرت به . كيف اطلقه من يديها وانزعه من براثنها ؟ وذئاب البشر هي اشرس من الذئاب .

اواه اين حبيبي ؟

اين كبشي الجميل ! كبشي الضائع

اريده لنفسي لا لسواي .

وما اتمت هذه الكلمات حتى وقعت على الارض مغشياً عليها

وكأنّ الطبيعة في تلك الساعة غضبت من جور الانسان على الانسان فاخذت تبرق وترعد ثم هبت عاصفة شديدة الهول ايقظت سلمى من اغمائها . فقامت مرتعشة مبللة وهرولت مسرعة الى الخيمة التي تعرّفت بها الى الحكيم لتكون بمأمن من الزوابع .

جلست في الخيمة قرب النافذة وكانت العواصف تزداد اندفاعاً والرياح الهوج تصفر من كل جانب .

ثم انقضت صاعقة على شجرة غضة جميلة فجندلتها فوقفت سلمى تتأمل في مصير تلك الشجرة التي كانت منذ لحظة اجمل اخواتها الاشجار النابتة في تلك الغاب .

ثم اخذت تناجي خالقها قائلة :

ربي ! ماذا جنت تلك الشجرة الجميلة حتى ابادتها الصاعقة من بين اخواتها !

ما هو جرمها ؟

هل كان فرط جمالها ونموها يعدّان في نظر الحياة جرماً ؟ فاذا كان الامر هكذا فيجب ان يقع الجرم على الطبيعة التي وهبتها النضارة والجمال لا عليها .

ربي ! انا وهذه الشجرة اختان يجمعني واياها جور الطبيعة وظلمها . فكما انها كانت زينة اخواتها الاشجار هكذا كنت في المدرسة بهجة رفيقاتي . وكما هدت الصاعقة كيانها قبل الاوان هكذا هدت صاعقة الحب كياني قبل اواني .

ولكن بيني وبينها فرق واحد .

ان الصاعقة التي جندلتها قضت عليها فاراحتها . واما الصاعقة التي جندلتني فلم تقض عليّ بل خلفتني اخبط في دياجي يأسي وألمي .

ربي ! ضاق صدري — فرج عني — ارحني من حياتي كما ارحت هذه الشجرة

ثم اخذت تبكي مستغيثة به تعالى كي يرحم ضعفها و ينجيها من آلامها ويأسها . وكانت تشهق شهيقاً متواصلاً وعيناها تسحان الدموع الغزيرة التي كانت تسيل على خديها ثم تقع نقطاً مبعثرة في ارض الخيمة .

وبعد حين اخذت الغيوم المتلبدة في الافق تتقشع فهدأت ثورة الزوابع وانحبس المطر . فلوث سلمى راجعة الى بيتها واليأس مخيم عليها والعبرات تشد بخناقها .

اليوم الرابع

ارق وهذيان

في تلك الليلة لم تذق سلمى طعم الكرى فكانت احياناً تخيل حبيبها عائداً اليها يؤانسها و يبادلها المحبة والهيام فتأنس حيناً بتلك التخيلات الجميلة ثم لا تلبث ان تتمثل جفاءه وتعلقه بغيرها فيخبو بريق املها و ينقلب استئناسها الى حزن عميق و يأس قاتل

هكذا قضت سلمى ليلتها تلك بين الارق واليأس ولما قرعت الساعة الرابعة قامت ترتدي ثيابها ثم ذهبت الى مكان حبها تنتظر قدوم الحكيم لعله يسكن ثورات نفسها بنصائحه وحكمه .

وصلت الى المكان المعهود قبل بزوغ الفجر وكان كل ما في الطبيعة لا يزال ساكناً .

الطيور المتنوعة والحيوانات المختلفة والحشرات العديدة كلها كانت نائمة مستريحة في مراقدها .

لم تسمع سلمى غير تصعيداتها وحفيف اجنحة الهواء تلاعب اغصان الاشجار وطنين بعض الهوام

وكانت السماء صافية والنجوم تتلألأ في القبة الزرقاء فتلقي

اشعتها الضئيلة على تلك الغابات الموحشة .

هنالك اخذت سلمى تمشي ذهاباً وإياباً وهي تبكي بكاءً مرًّا وتندب حظها بالم شديد . ثم نظرت الى السماء وصاحت بملء فيها :

ربي ! هل الطيور تفضلني ؟ وحيوانات الطبيعة وحشراتها احسن مني ؟

لماذا كلها الآن نائمة مستريحة ما عدا جسدي الذي لم يذق طعم النوم .

لماذا كلها ساكنة ما عدا نفسي الثائرة التي لا تعرف السكون .

هبني الراحة كما وهبتها لغيري من خلائقك .

لاح الفجر من وراء الشفق الازرق فابتدأت النجوم تتقلص من امامه مختفية وراء السدم كما يختفي الضعيف من وجه عدوّه الجبار .

اجل ان الفجر هو الكتيبة الاولى التي تدفعها الشمس امامها ثم لا تلبث ان تعقبها بكتائب انوارها الساطعة التي لا قِبَل لجيوش النجوم على الوقوف امام تيارها .

قامت العصافير تزقزق متنقلةً من غصن الى غصن ونهض كل ذي حياة يسرح في طلب قوته .

ثم برزت الشمس من وراء صنين والقت اشعتها الذهبية في كل مكان .

اما سلمى فكأن انوار الشمس الساطعة لم تنفذ الى خفايا قلبها ولا الى تلافيف لبّها . فبقيت تخبط في ليل حزنها الدامس وهي تندب سوء حالها وتلعن الساعة التي وُلدت بها .

ان الارق المتواصل والحزن العميق اللذين استوليا عليها في تلك الليلة انهكا قواها الجسديّة والعقلية فاصابها ضرب من الهذيان والذهول الوقتي افقدها رشدها . فلم تشعر بالفجر ولا بانوار الشمس المضيئة امامها . ولم تنتبه الى زقزقة العصافير الشادية بقربها ولا الى يقظة الاحياء واستئناف الحركة والضوضاء في المعامل القريبة .

وبينما هي مسترسلة في ذهولها وهذيانها اقبل الحكيم فوقف امامها وحيّاها كعادته فحملقت بعينيها شاخصة به دون ان تنبس ببنت شفة .

فادرك انها في حالة غيبوبة عقلية . وقال في نفسه :

مسكينة هذه الفتاة ان عينيها شاخصتان بي ولا تريانني لان عينيّ عقلها مغلقتان ومن لم ينظر بعين العقل لا ينظر بعين الجسد .

ثم اسرع الى صيدلية قريبة واخذ لها بعض المنعشات وظل بقربها يمدّها بعنايته والتفاته الى ان استفاقت وعاد اليها رشدها ·

فقدّمت له شكرها وامتنانها وعيناها مغرورقتان بالدموع · اما هو فاخذ يؤاسيها ويطيب خاطرها باحاديثه ونكاته اللطيفة ·

استئناف الحديث

القبلة الاولى

وبعد ان اخذت قسطها من الراحة اشار اليها الحكيم ان تعود الى سرد حديثها ·

قالت : وتواعدنا انا وحبيبي في الاجتماع الثاني ان نلتقي في هذا المكان مرتين كل اسبوع بدلاً من مرّة واحدة لانه صرّح لي بانه لا يستطيع ان يبقى اسبوعاً كاملاً دون ان يراني ويتمتع بحديثي ·

فنزلت عند طلبه واخذنا نتلاقى كل احد وكل خميس في هذه الحديقة ·

وكنا دائماً نجلس الى هذه الحجارة الملاصقة هذه الشجرة التي كانت اغصانها تظللنا من حر الصيف ومطر الشتاء ·

والان فلو كان لهذه الحجارة ولاغصان هـذه الشجرة لغة كلغتنا والسنة تنطق كالسنتنا لشهدت امامك كيف كان يظهر لي محبته وهيامه ٠ وكيف كان يغمرني بمواعيده الخلابة التي لم ينجز منها وعداً واحداً ٠ لأنها كلها كانت عرقوبية كما كان غرامه كله شهوانياً

في كل لقاء كان يزيد اقترابه مني ٠ لقد اكتفى في اللقاء الاول بمحادثتي ٠ واخذ في اللقاء الثاني يمسك يدي ويلهو بتعداد اصابعي كما يلهو الطفل الساذج باصابع امه ٠

وطفق في اللقائين الثالث والرابع يضع يمناه بيدي ويسراه عَلَى كتفي ٠

ثم حاول في اللقاء الخامس ان يقبّل يدي فانتزعتها منه ٠ فاظهر انزعاجه ثم اقسم لي بان الحب الطاهر يدفعهُ الى ذلك وانه يحبني ويحترمني ولا يريد بي سوءاً ٠

فعندئذ اسلمته يدي فقبّلها مراراً ثم وضعها على خده فشعرت في تلك الساعة بكهرباء الحب يهز عروقي هزاً ولكني ما لبثت حتى ظهر امامي خيال الفضيلة التي كانت توصيني دائماً بها امي فارعويت ثم تجالدت ونزعت يدي بلطف من امام وجهه ٠

وفي اللقاء السادس ولا تسل عن اللقاء السادس كان الفوز والانتصار لحبيبي والانكسار والذل لي

جلسنا هنا وكان وجه حبيبي كالبدر · عيناه تشعان نوراً وجمالاً وخداه يفوقان الورد احمراراً وكان الدم يغلي في عروقه وشهوة الحب بادية على شفتيه ومقلتيه وسائر ملامحه ·

اجل هنا اخذ لسانه يترجم عن قلبه المفعم بشهوة الحب والملتهب بناره ·

هنا اقترب مني لا كما كان يقترب سابقاً بل كما يقترب الذئب من الشاة · وبقوة غريبة ضمني الى صدره وحاول ان يقبّلني · فافلت من بين يديه · لكنه ادركني على بضع خطوات وامسك بيدي فاخذت اؤنّبه على ما فعل ·

فقال : لا تخافي يا حبيبتي ان القبلة التي وددت ان اطبعها على جبينك هي عنوان المحبة الخالصة وعربون اتحادنا الدائم ·

لا تخافي انا احبك وافدسك واغار عليك كما اغار على نفسي لانني لست من اولئك المرائين في الحب ولا من المتاجرين بانتهاك حرمة العذارى وثلم اعراض المحصنات ·

بمثل هذه الاحاديث اخذ يطيب نفسي فصدقت كلامه وارتميت في حضنه .

فطبع على خدي قبلته الاولى التي كانت فاتحة قبلات متواصلة وطوراً جديداً من اطوار الحب .

الحكيم — يبدو لي من خلال حديثك ان الحب الذي نشأ في قلبك وقلب حبيبك كان في بدايته حباً عذرياً صرفاً ثم اخذ يتجه نحو المادة حتى امسى في النهاية متحولا بكليته اليها .

ولهذا السبب ارجو منك الان ان تسردي حديث غرامك عَلَى علاته دون ان تكتمي شيئاً منه .

ولا تخجلي في تبيان عثراتك الحبية فانا موضع ثقتك ومرشد امين لكل ضال مثلك .

وفضلاً عن ذلك كوني عَلَى ثقة من ان عثرات الحب كثيرة قلما ينجو منها العاشقون .

سلمى — اعاهدك ايها الحكيم اني لا اكتم عنك شيئاً لعلك تؤاسيني بجميل نصائحك وتخمد ثورة نفسي بسديد رأيك وكمال حلمك .

اجل ايها الحكيم كنا في اوائل حبنا نكتفي في ساعات

الوصال بتبادل الابتسامات الطاهرة والاحاديث العذبة الرصينة . وكنا نتلذذ ايضاً بالاحلام الجميلة والاماني الرائعة .

ثم اخذ حبيبي بعد ان ظفر مني بالقبلة الاولى يزداد في كل وصال قحة وجرأة ويتحامل عليَّ تحاملاً غير مألوف . وكنت امانعه ما استطيع واحاول صده . لكنه كان يغلبني على امري لان قوة الحب كانت دائماً تذاني وتساعده عليَّ

فاصبحنا بعد حين كلما التقينا نتبادل احاديث الحب الحر والكلام الاباحي عوضاً عن تبادل تلك الاحاديث العذبة الرصينة ونتلذذ بالمصافحات والقبلات وما شاكلها بدلا من التلذذ بالاحلام والاماني .

الحكيم — كل عاشق يبلغ به الهوى الى انتهاك حرمة الحب يكون بحكم الطبع قد فقد اكرام نفسه واحترام حبيبته . فيمسي كالبهيمة التي لا قبل لها بمقاومة الغريزة وسائر النزعات الجنسية . فعندئذ لا يبقى الحب في قلبه حباً بل يصبح شهوة فقط .

وهذا ما حدث لك ويحدث دائماً لكثير من العاشقين .

سلمى — صدقت ايها الحكيم لان اموراً كثيرة جرت لنا بعدئذ وكانت كلها ترمز الى الشهوة لا الى الحب .

فبعد انتهاء السنة الثانية على ولائنا اخذ حبيبي يتمادى في انتهاك حرمة الحب تمادياً كلياً . فامسينا كلما التقينا في هذا المكان نصرف الساعات الطويلة بالمداعبات المجونية .

فكان تارة يضمني الى صدره ويقبّلني قبلات حارة وطوراً كان يلاعب شعري بكلتي يديه ثم ينام هنيئاً عَلَى ركبتيّ .

لم اجرأ في بادىء الامر ان اقبّله ولا ان اضمه الى صدري فعاتبني ناسباً انكماشي عنه الى عدم محبتي له .

مع اني كنت بالعكس اشعر ان قوة الحب هي وحدها التي كانت تمنعني عن ضمه وتقبيله .

ثم تجاسرت واخذت اضمه فيما بعد الى صدري واقبّله كلما قبّلني .

وبعد ان وصلنا الى هذا الحد قلّ كلامنا ونضبت موارد حديثنا .

فكأننا ابتلينا بخرس اللسان منذ ابتدأت الشفاه والايدي تعبر عن شهوة الجنان .

لا مشاحة ان تقبيلي اياه زاده تجاسراً وتطاولاً عليّ .

فاخذ بعد قليل يمد يده الى صدري ثم الى ثديّ اللذين لم

يمسسهما بشر غيره منذ بروزهما وتفتيح اكمامهما . فابتعدت عنه محتدمة حنقاً وغيظاً .

فقام للحال يستعطفني قائلاً :

لا تخافي يا حبيبتي انا لكِ وانت لي اعاهدكِ انني في اواخر هذه السنة انال شهادة المحاماة واكون لك نعم القرين .

فزال اضطرابي نوعاً ثم جلست ازاءه باحتراس وحذر . فشعر بذلك وغير حالاً مجرى كلامه معي .

ثم اخذ يحدثني عن الموسيقى وما تفعله في القلب وكان يعلم جيداً ان ولعي بالموسيقى لا يفوقه الاَّ ولعي به .

ثم ذكر لي بعض روائع الالحان الافرنجية وكبار ملحنيها وبعض مقاطع الالحان العربية واسماء واضعيها وسألني : اي الموسيقى احب الى قلبكِ العربية ام الافرنجية ؟

فاجبته : لا احب الاثنتين فقط بل احب ايضاً موسيقى الطيور وموسيقى الرياح والعواصف وموسيقى خرير المياه وصخب الامواج .

كل ما في الكون يجلب حساً او طنيناً او هينمة او لحناً يهزني ويطربني .

آه ما اجمل موسيقى الطبيعة وما احلاها عند من يتذوقها وينتبه الى جمال الحانها ودقة نبراتها .

هكذا انتهت بيننا تلك المقابلة على سلام . واما المقابلة التي تلتها فقد عاد فيها الى دأبه . فابتدأت يده تلمس صدري ثم تطاول الى ثديي وكانت عيناه تكتحلان بعيني كما تكتحل عينا المنوم المغناطيسي بعيني وسيطه .

. . .

ولما شعر بقوته وضعفي ضمني اليه وابتدأ يداعبني كأنني العوبة بيديه .

ثم اخذ يقبلني بوجهي وثديي وفي كل مكان من جسمي . وكأن عواطفه الهائجة ايقظت عواطفي فاثارتها ايضاً فامسيت واياه كلما تصالحنا وتضامنا نزداد وهجاً وسعيراً كما يزداد الاتون ضراماً كلما ازداد حطباً .

الحق اقول لك: لم يبقَ من ملمس لم يلمسه فيَّ الا ملمس العفاف لقد نمت على حبه الا عن هذا الملمس . وكنت كلما بدرت منه بادرة سوء ارغي وازبد كاللبوة الفاقدة اشبالها . فيرعوي ويعود الى مؤانستي متظاهراً انه لا يريد انتهاكي .

معرفة والدي بغرامي

وفي ذات يوم بينما كنت وحبيبي مختليين في هذا المكان مر احد اصحاب والدي ورآني على هذه الحالة المريبة فانتهرني واسداني بعض نصائحه . ثم جاء توّاً الى والديّ واخبرهما بذلك

ولما عدت الى البيت اخذتني امي على حدة وابتدأت توئنبني بشدة قائلة : ان ابي مستاء كثيراً من سوء تصرفي وانه كان شاعراً بغرامي منذ مدة طويلة . لكنه لم يفاتحني بهذا الموضوع لشدة ثقته بي واعتقاده بحسن تهذيبي وفضائلي . ثم اردفت قائلة :

اما الان فقد طفح الكيل بعد ان ظهرت منكِ امورٌ اخجل من ذكرها ولم نكن ننتظرها منكِ .

فعليه لم يبقَ امامكِ الا العود الى حظيرة الفضيلة فهي وحدها تؤول بك الى السعادة والطمأنينة وتجعلكِ بمأمن من غضب والديك وتحدث الناس بذمك .

واذا كتب لك الزواج في المستقبل فيجب ان تكوني من فضليات النساء ادباً وخلقاً وعفافاً .

هـذه هي خطة المرأة الفاضلة التي احتم عليك اتباعها · واعيذك من عقبى الفجور ·

فاجبتها معترفة بخطأي ثم طلبت منها ان تصفح عما بدر مني ووعدتها بالتوبة واصلاح نفسي ·

ولما انست منها عطفاً اخذت اروي على مسامعها واقعة حبي من اوله الى آخره · ثم صرحت امامها بشدة تعلقي بحبيبي وأبنت لها مفصلاً مقام عائلته الاجتماعي ومركزه الادبي والمادي وشدة رغبته بالزواج بي · ولم ادع صفة من الصفات اللامعة الا لصقتها به حتى جعلته امامها مثلاً اعلى من امثلة الكمال الانساني ·

فاجابتني ان عين الحب عمياء يا ابنتي ولكن اذا كان ذلك الشاب حقيقة كما تقولين لا كما يصوره لكِ الحب فادعه الى زيارتنا لنتعرف اليه · وانا اعدكِ بالمساعدة تجاه والدكِ · وثقي يا بنيتي ان كل ما يرغب فيه ابواكِ من هذه الحياة ينحصر براحتك وحسن سمعتكِ ودوام سعادتك ·

...

في اول فرصة سنحت لي اخبرت حبيبي عن كل ما جرى

لي في البيت وتوسلت اليه بالحاح ان يأتي لزيارتنا و يتعرف الى والديّ اللذين يرغبان بمشاهدته وان يطلبني منهما كما وعدني مراراً

فصمت لحظة ثم قال بانه لا يرى ذلك موافقاً الان قبل حصوله على شهادة المحاماة .

فجئت واخبرت والدتي بذلك فعندئذ نهتني عن مقابلته احتراماً لنفسي وسمعتي الى ان يتسنى له ان يطلب يدي .

وبعد حين عرف والداي انني لم ازل اجتمع به فوضعاني تحت المراقبة الصارمة حتى اصبح كل من في البيت يلاحظني ويحصي عليّ خطواتي وانفاسي .

فازددت من جراء تلك المراقبة الصارمة هياماً وشوقاً حتى جننت بحبه وامسيت اختلس الفرص لملاقاته في الليل البهيم بعد رقاد اهلي .

اجل لقد ضحّيت بالكثير من اجل حبيبي وامتهنت نفسي وكرامة عيلتي وفقدت راحتي وطيب احدوثتي بسببه

وشد ما يؤلمني انني كنت كلما امعنت في حبه كان يمعن في مراودتي . لان غايته في الحب لم تكن شريفة كغايتي .

وكم كنت اصدّه تارةً بعنف وشدّة وطوراً بلين وتودد

وكان في كلا الحالين لا يرتد عني ولا ينفك يلجّ لتنفيذ اربه مني .

واخيراً صرّحت له بانني لست مومساً لينتهك عرضي كلما شاء . انا فتاة عذراء احبه واريده بعلاً لا خليلاً .

ولما ملّ من بلوغ مرامه علق غيري وجفاني .

لفظت سلمى عبارتها الاخيرة والغصة في مجرى كلامها والدمعة في اجفانها . فعندئذ قال لها الحكيم :

حسناً فعلت وانك لتستحقين على ذلك اكليل الغار لا اكليل الشقاء . فيجب ان تقرّي عيناً وتطيبي نفساً لانكِ خرجت منتصرة من هيجاء الحب لا منكسرة كما تعتقدين .

ومن كانت مثلك فهي نعم الفتاة وستكون ولا شك وهي نعم الام ونعم المرأة الفاضلة

والان حان الظهر فاودّعك وغداً نلتقي هنا ونتحدث طويلاً ان شاء الله .

اليوم الخامس

الحكيم وحده يتأمل في الحب الذي لا تتآلف فيه الاخلاق
ولا الصفات و يعدُّه مرضاً من الامراض
الادبية المستعصية

ولما انبثق فجر اليوم الخامس جاء الحكيم مبكراً الى لقاء سلمى التي ادهشته بصفاء ذهنها وصلابة عودها واعجب بها كل الاعجاب لانها كانت تحب الفتى الاثيم حباً يقرب من العبادة . وفضلاً عن ذلك قدرت ان تتخلص من اوحال اثمه دون ان تتمرّغ بها .

جلس الحكيم مدة ينتظرها ولما ابطأت قال في نفسه : مسكينة هذه الفتاة لا ادري ما ذا حل بها حتى تأخرت على غير عادة عن قدومها .

انها لفتاة صادقة في ودها امينة في حبها كريمة في اخلاقها وصفاتها .

انها لحرية بان تكون زوجاً لافضل الرجال لانها من فضليات النساء

ولكنها لسوء الحظ هامت في حب شاب ديدنه اللؤم والتهتك . فهي من صميم فؤادها تريده بعلاً وهو لا يريدها الا خليلة .

ان امثال هذه المحبة التي لا تتآلف فيها الاخلاق ولا الصفات تعد في نظري مرضاً ادبياً من امراض الحب .

وامراض البشر الادبية كثيرة الوقوع كالامراض المادية .

فكم فتى بعيد الهمة صادق الود تفتنه عاهرة متهتكة وتنغص صفو عيشه وتلعب بقلبه وهو مع كل ذلك يموت بحبها ولا يرضى عنها بديلاً .

وكم فتاة طاهرة الذيل متوقدة الذهن تقع في اشراك خليع لا يفهم من معاني الحب الا معنى التهتك . ولا يعرف الحق ولا النزاهة ولا يشعر بالاخلاص ولا بالمحبة الصادقة وفضلاً عن ذلك فهي تهيم به هياماً شديداً وتقدس اسمه كانه من افذاذ الرجال

ما هذه الغشاوة الكثيفة التي تخفي النقائص البارزة عن اعين المحبين ؟

هل الخير يهيم بالشر فيقترنان او الشر والخير اخوان فمهما افترقا وتباعدا يعودان بقوة الاخوة ويتلاقيان

...

لماذا لا يتدارك العلماء والفلاسفة ورجال الاختصاص الامراض الادبية الكثيرة التي تفتك بالمجتمع الانساني اكثر مما تفتك به الامراض المادية ؟

لماذا لا ينشئون لكل علة من علل النفس ملجاء يلجأ اليه المرضى لمداواة نفوسهم العليلة كما انشأ العالم المتمدن لكل علة من علل الجسم المستشفيات والملاجىء وتخصص رجال الطب لمكافحتها وابادتها ؟

فهل فات هؤلاء انهم لا ينالون امنيتهم الا عن طريق ابادة الامراض النفسية التي هي والحق يقال المصدر المسبب لمعظم جراثيم الامراض المادية الفتاكة .

...

اليست سلمى هذه الفتاة التاعسة في حبها احدى ضحايا تلك الامراض النفسية القاتلة ؟

لقد احبت منذ بلوغها ثم نما الحب في قلبها فصار شغفاً وهياماً ثم انقلب بعد جفاء حبيبها الى مرض نفساني جلب عليها اليأس والتعس والاضطراب المتواصل . فوهنت قواها واعتل جسمها وامست عرضة للسويداء وللامراض العصبية القاتلة .

فكم و كم من امثالها في هذا الكون الذين لا يحصى عددهم اوصلتهم امراضهم النفسانية التي عجزوا عن كبح جماحها الى امراض مادية ارهقتهم واودت بحياتهم .

. . .

لقد خبرت الحب بنفسي في اوائل شبابي ومرضت بسببه مرضاً اديباً اليماً حتى بلغت روحي التراقي وكاد اليأس يودي بي لولا قوة جسمي وصلابة عزمي ومتانة ارادتي وطول اناتي .

سأنجد سلمى بدواء خبرتي ومعارفي وسأضمد جراح نفسها ببلسم تجاربي .

واني لواثق كل الثقة بشفائها التام . لان المجرب بنفسه هو خير من الف طبيب

هكذا شغلت سلمى ذهنه طيلة صباح ذلك النهار ثم عاد الى بيته وهو يفكر بها آملاً ان يلاقيها في الغد ليزودها بارشاداته

اليوم السادس

سلمى تنهي سرد قصتها والحكيم يتلو على مسامعها بعض تأملاته

في صباح اليوم السادس ذهب الحكيم مبكراً الى المكان المعهود لعله يلتقي بسلمى التي لم تجيء امس الى لقائه كعادتها .

ولما لم يرها هناك شغل باله وقلقت افكاره من قبلها لانها كانت تبكر دائماً في مجيئها .

فخيل اليه انها فوجئت بنو بة عصبية ارهقتها وهدت قواها فجزع جزعاً شديداً وقال في نفسه :

مسكينة هذه الفتاة اذا لم نتدارك بالحكمة والروية فانها ولا شك تقضي ضحية جفاء حبيبها الاثيم .

وبينما هو في هذا التفكير اقبلت سلمى فانشرح صدره للقائها وبعد ان تبادلا التحية سألها فوراً عن سبب عدم مجيئها البارحة

قالت : هممت بالمجيء صباح امس كعادتي لكني لم اسر بضع خطوات عن البيت حتى شاهدت حبيبي يتمشى برفقة احدى فتيات الحي . ولما ابصرني اخذ على مسمعي يبثها شوقه وهيامه

كأن لم يكن بيننا سابق حب ولا سالف غرام ·

فلم اطق هذه الاهانة وجهاً لوجه ووددت ان اشتمه على اباحته وعدم وفائه · لكن تهذيبي حال دون ذلك فلم انبس ببنت شفة ·

ومن شدة حنقي وغيظي اخذت انتفض انتفاض عصفور ثم ملكتني قشعريرة كأنها قشعريرة الموت · فوقعت على الارض بلا وعي ولا حراك · ولم استفق الا وانا على سريري · وبقيت طيلة امس مستلقية على فراشي وانا بين حية وميتة ·

هذا ما حدث لي البارحة ايها الحكيم وكثيراً ما يحدث لي مثل ذلك ·

ولما سبر والداي غور نفسي ونظرا ما آل اليه جسمي من الضعف والهزال اخذا يزورداني كل يوم بنصائحهما الابوية · ثم تركاني وشأني اذهب للتنزه حيث اشاء وساعة اريد ·

وكم بسطا لي نصحهما برفق وحنان كي اقلع عن محبة هذا الشاب الخائن المحبة الذي لا يستحقني لتعود اليّ صحتي وطمأنينتي · لكنني حتى الان لم اقوَ على ذلك رغماً من انني شاهدته بنفسي مراراً عديدة يغازل بعض الفتيات ويتودد اليهن في الطرقات والجادات والحدائق العمومية وفي كل مكان يراهنّ

انه لعمري زير نساء ينضح قلبه بالشهوة الجنسية لا بالحب

اني اعرف ذلك تمام المعرفة واشعر بكل مساوئه ونقائصه ولا ادري لماذا احبه واموت بحبه .

. . .

ومنذ ايام قليلة التقيت به يتمشى وحده ذهاباً واياباً وهو يتلفّت كاللص رامحاً بناظريه الى نوافذ احد البيوت كأنه ينتظر فريسة جديدة من فرائسه .

ولا ادري هل كانت تلك الفريسة الجديدة فتاة يافعة اوقعها بشراك حبه او امرأة متزوجة اقتنصها بفخاخه .

فاقتربت منه ولم يرني وهززت كتفه ولم يشعر بي لأنه كان شاخصاً بكليّته الى ما فوق .

فهمست باذنه قائلة :

اما آن لك ان ترعوي ؟

اما كفاك طيشاً وخلاعة ؟

انظر ما ذا فعلت بي ؟ لقد امسيت كما تراني واهنة العزم خائرة القوة من جرّاء صدك وجفائك .

تأمل مليّاً بضعفي وهزالي اما لك قلب يشعر وعين تنظر وعقل يحكم !

لماذا تقابل المحبة بالنقمة والجميل بالاساءة والوفاء بالخيانة ؟

لماذا لا ترحم ضعفي وتشفق عَلَى تلك الحالة المؤسفة التي اوصلتني اليها انت وحدك .

فاجابني : انت المخطئة يا سلمى لأنك انت التي اوسعتني شتماً واهانة لمجرّد امنية طبيعية رجوتها منك بكل حرية وصراحة .

لقد بيّنت لي مراراً انكِ لا تسلمين بتلك الامنية الاّ عن طريق الزواج الذي لا اقوى الان على عقده لاسباب قاهرة .

كيف تريدين ان اظل بقربكِ محترقاً وانتِ التي تثيرين نار شهواتي وتبخلين عليّ باخمادها !

انتِ التي جعلتني اتطلع الى هنا وهناك وان اتحرّى منهلاً غيركِ من منـاهل النساء لعلي ارى ما يبرد غليلي ويروي ظمأ شبابي .

والشباب كثير الظمأ والحرارة لا يعيش بلا مورد يرويه ولا مبردات تطفيه .

. . .

ولما سمعت منه ذلك تركته وقلبي يتفطر اسفاً وحزناً .

اجل اني احبه حباً يقرب من العبادة ولكني احب ايضاً صيانة عرضي والمحافظة على شرف اهلي وعيلتي .

ولهذا السبب سأقضي ولا شك ضحية هذين الحبين .

. . .

نهار امس جاءت لزيارتي احدى الفتيات التي كان حبيبي يتودد اليها ليوقعها في شراك حبه وكانت من رفيقاتي في المدرسة فاخبرتها عن غرامه الاثيم وكيف انه لايحب الاّ لقضاء لبانته والاّ سيتركها كما تركني شقية تاعسة . فلم تصدق كلامي ثم قالت لي :

اذا كان الامر هكذا فلماذا اذن تركضين وراءه وتتبعينه من مكان الى مكان ؟

فهل انت شغوفة باثمه ؟

فتلعثمت امامها لاني لا اقدر الاّ ان اتبعه واراه ولو عن بعد .

آه ما اشقاني وما اتعس حياتي ايها الحكيم .

الحكيم — لا تقنطي يا سلمى من متاعب الحياة لأن الانسان لا يتعلم الاّ من المتاعب .

ولا تيأسي من شقائك في الحب فرب شقاء قاد الى سعادة ورب سعادة قادت الى شقاء .

. . .

ان هذه المتاعب الحبيّة التي تحدث لكِ الان حدث لي مثلها بالامس و كنت احسبها جحيماً لفؤادي ولكنها سرعان ما اصبحت نعيماً لنفسي لأنها هي التي وسعت مدار كي وراضت ذهني وجعلتني اقوى على احتمال مكاره الحياة ومجابهة شدائدها

هكذا في الغد تنقلب هذه التجارب التي تتحملينها الان بالم ومرارة وتصبح لك ولا شك بمثابة عدة تتقين بها صدمات الحياة ونوائبها .

والان فلندع ذلك جانباً . وتعالي معي لنتأمل في مخلوقات هذا الكون الذي يفرح القلب و يبهر العقل والبصر

. . .

تأملي في هذه الطبيعة كيف تثير في الشتاء اشد الرياح والعواصف ثم تبعث في الصيف الطف النسمات واعذب الهواء . فهي تعلّمنا الرقة والشدة معاً . والاثنتان لازمتان في الحياة .

تأملي في البحر كيف يلفظ كل آسن ولا يقبل في قلبه قذارة ولا كدرة . فهو يعلّمنا ايضاً ان نغسل قلوبنا من ادرانها وان نطرح خارجاً كل ما يشيننا ويؤلمنا .

تأملي في الاعشاب الضعيفة كيف تبرز من بطن الارض بقوة جدها وجلدها لتتمتع بنور الحياة . فهي تعلّمنا ان ننشد العمل المتواصل وتحلى بالصبر لنحصل عَلَى رغائبنا

تأملي في الذبابة او بالاحرى في البعوضة الضئيلة كيف تقتحم المخاطر لقاء لحياتها وانتِ تريدين ان تتخلصي من حياتك افلست افضل منها ؟

تأملي بها كيف تهاجمك غير هيّابة رغماً من شدة ضعفها وحقارتها وتلسعك لتعتاش من دمكِ . فهي تعلّمنا ان نولد من الضعف قوة وان نجابه شدائد الحياة غير هيابين ولا وجلين .

لا تخافي اذن من الضعف لان الضعفاء هم الذين يلقون عَلَى الارض امثولة الشجاعة الصحيحة لا الاقوياء

ان الاسد الذي يمثّل القوة بحذافيرها فهو يبطش بالضعفاء ويحاذر الاقوياء .

اما البعوضة الحقيرة التي تمثل الضعف المتناهي فهي لا تحاذر اسداً ولا تخاف قوياً ·

تأملي في النملة الصغيرة كيف تدأب ليل نهار جادة وراء العمل لأجل حفظ كيانها · فهي تعلّمنا ان نحافظ على كياننا وان نجعل حياتنا مليئة بالاعمال المجيدة لا باليأس والقنوط ·

تأملي في الجداول الجارية وفي المصافير المزقزقة وفي اغصان الاشجار الراقصة في الهواء وفي الشمس المشرقة وفي السهول المنبسطة والقمم العالية والاودية العميقة — كلها جميلة رائعة تحبب الينا الحياة ·

· · ·

لا تقيدي ذهنكِ بقيود الغرام ولا تصرفي كل قواكِ بدائرة ضيقة من دوائر الحياة ·

اسرحي وامرحي في كل مكان · وتأملي في كل شيء يقع طرفكِ عليه ·

ان اصغر نبتة الى ادنى حشرة هي جديرة بان تتبصري بها وتتأملي في جمالها وسر كيانها ·

فكم هي اذن خليقة بالتأمل وجديرة بالحب جميع مخلوقات الله .

تأملي في النهر الجاري كيف يروي الحقول ويجعلها كثيرة الخصب والنضارة . ثم تأملي قليلاً في النهر المحصور كيف ينفجر ويدمّر كل ما حوله من المروج ويجعلها قاعاً صفصفاً .

هكذا المحبة فهي كالنهر اذا انحصرت في ناحية واحدة تنفجر وتدمر كيان الراحة البشرية وتدك معالم الرجاء والسعادة .

فيجب علينا اذن مهما بلغ فرط حبنا لوالدينا واخوتنا واخواتنا ومهما ازددنا هياماً باحبائنا ومهما شغفنا بازواجنا واولادنا ان لا نشغل محبتهم كل افئدتنا واذهاننا بل يجب علينا ان نحفظ في داخل وجداننا مركزاً هاماً لمحبة جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم كما انه يجب ان يظل لدينا ايضاً مكاناً خاصاً لمحبة العلوم والفنون والخلال الحميدة ومكاناً لمحبة هذه الارض واحيائها كافة لاننا كلنا اقرباء وشركاء في هذه الحياة .

. . .

تأملي يا سلمى في كل ذلك وتعودي من الان فصاعداً ان

توزعي حبكِ في هذه الحياة توزيعاً نافعاً كما توزع الطبيعة حبها وخيراتها على جميع انواعها . فعندئذ تنتصرين على اليأس وتحصلين على السعادة .

هذا كل ما ارجوه منكِ الان وغداً تبتدئين ولا شك بان تشعري ببريق الرجاء يسطع في حنايا قلبكِ وخلايا ذهنك .

فالى الغد يا سلمى الى الغد .

اليوم السابع

سلمى تقص على الحكيم حديث حبيبها عن اهمية الزواج
الطبيعي وعدم اهمية الزواج الشرعي
والحكيم يتحفها بآرائه الناضجة

مرَّت بضعة ايام لم تنظر سلمى في خلالها الحكيم مع انها كانت تذهب كل يوم الى المكان المعهود وتقضي هناك معظم ساعات الصباح دون ان تلتقي به .

فحارت في امره لعدم مجيئه واخذت في هذا اليوم تبحث عنه وتسأل المارة واصحاب البيوت المجاورة لعلها تهتدي اليه او عَلَى الاقل الى منزله لأنها تود ان تفضي اليه بما حدث لها بعد وداعه وبما يجيش في صدرها من الافكار والهواجس .

فلم تترك بيتاً في شارع السيوفي دون ان تطرق بابه وتسأل عنه ولكن كيف تهتدي اليه وهي لا تعرف له اسماً ولا كنيةً .

ولما خاب رجاؤها عادت الى حديقة السيوفي وجلست هناك يائسة منسحقة القلب لائمة نفسها لعدم تعرفها الى اسمه او الى منزله .

وكانت كلما تأملت في قصورها يشتد حزنها وتزداد نار يأسها وهواجسها اضطراماً . وليس لديها ما يخمدها غير دموعها . والدموع مهما سخَّت فهي لا تطفئ ناراً ولا تخمد سعيراً .

وبينما هي على هذه الحال اقبل الحكيم فابصرها على شجونها فحياها قائلاً :

اسعدك الله يا صديقتي ألستِ اليوم احسن حالاً .

سلمى — لا أيها الحكيم لأنني كنت في خلال هذا الاسبوع بحاجة قصوى الى نصائحك ولا اعلم لماذا بخلتَ عليَّ بقدومك .

الحكيم — لقد ذهبت الى القرية اللبنانية التي انتمي اليها ومكثت بها طيلة ايام الاسبوع . لانني وددت ان اغسل نفسي من ادران المدينة واتمتع بمرأى الطبيعة الهادئة والحياة القروية الساذجة .

ما احسن الحياة يا سلمى بين القرويين والطبيعة .

ما اجمل عيشة الفلاح الذي يمشي بابقاره الى الحقل ويشق الارض ويزرعها اشكالاً وانواعاً .

ما اهنأ حياة الرعاة الذين يستقبلون فجرهم في الحقول وينتقلون بمواشيهم من بطاح الى بطاح وهم يسبحون المبدع بشباباتهم واغانيهم الساذجة .

ما احسن حياة القرويات اللواتي يعملن في الحقل كما يشتغلن في البيت ويعتنين في تربية اطفالهن كما يهتممن ايضاً في تربية صغار حيواناتهن الداجنة .

ان هؤلاء القرويين يشعرون بسعادة الحياة اكثر من ابناء المدن رغماً من فقرهم وشظف معيشتهم لأنهم بمعزل عن اثقال المدنية وكثرة مطاليبها وبؤرة مفاسدها .

والان ما لنا ولهم حدثيني عما جرى لكِ بعد فراقي لانني اصبو الى تنسم اخبارك وايجاد راحتك

سلمى — في صباح اليوم الثاني بعد غيابك التقيت بحبيبي في هذا المكان وجلسنا معاً حتى الظهيرة كما كنا نجلس في ايام الحب . وقد اظهر لي شدة ندمه على جفائي وخيانتي معتذراً عن مساوئه الماضية معلناً انه لا يعود اليها .

ثم طلب مني ان امتعه بنفسي مقسماً بأنهُ يكتفي بي ولا يعلق غيري كل حياته .

ولما رأى انه يستحيل عليَّ ان اسلّمهُ نفسي بلا زواج شرعي قال لي :

ما هي اهمية عقد الزواج الذي تريدين ان نتقيد به ؟

ان عقد الزواج الصحيح هو ما تعقده الطبيعة على جميع احيائها لا ما يعقده الكهان والقضاة ؟

فاذا كان يعوقنا الان ان نتمم شرائع الزواج دينياً او مدنياً فلماذا لا نتمم شرائع الطبيعة .

تلك الشرائع الغريزية التي يوحي بها الوجدان وحفظ الكيان

لماذا لا يتزاوج البشر كما تتزاوج الاشجار ؟ ولماذا لا يتخالطون كما تتخالط الاسماك في البحار والعجموات في القفار ؟

لماذا نحافظ على هذه الشرائع العقيمة التي وضعها الاقدمون لعصورهم وبيئاتهم وهي لا تصلح اليوم لبيئتنا وروح عصرنا وتمدننا

فلنطرحها خارجاً ولننزع عنا كل هذه التقاليد البالية والقيود الباطلة التي هي عنوان ذلنا واستعبادنا

تعالي اليّ وضمي قلبك الى قلبي لتتلذذ في هذه الحياة ويتمتع الواحد منا بالاخر كما تتمتع جميع مخلوقات الله .

فوعدته بالجواب في اواخر هذا الاسبوع

. . .

ومنذ يومين التقيت به فسألني بالحاح عما عولت عليه . فاجبته انني لم انته بعد من تمحيص طلبه . فقال :

سلي نزعات قلبك وعواطفك الملتهبة فهن يجبنك على سؤالي ولا تدعي ضميرك او دينك او عقلك كلها تحول دون رغبتك ومناك لانهم وجدوا ليخدموا الجسم البشري لاليكبلوه بالاغلال والقيود .

ثم انصرف بعد ان طلب مني مجاوبته في اقرب فرصة . ونهار البارحة جئت الى هذا المكان مؤملة ان القاك واسترشدك بالامر . فصرفت يومي كله دون ان احظى بمقابلتك . ثم عدت مساء الى البيت واخذت افكر وحدي في هذه المسألة المهمة مشغلة ذهني في درسها وتمحيصها .

فلم ارَ لها حلاً الا بالتسليم او بالانتحار . ولا ادري الان ما هو اجدى لي أأسلّم بامنيّة حبيبي وانبذ ظهرياً شرائع الناس وتقاليدهم وعاداتهم ام انتحر فاتخلص من عذاب الحياة ومن القيل والقال .

الحكيم — اذا كان حبيبك يودّ ان يقطع عنك الاغلال والقيود فلماذا اذن ترغبين ان تقيدي نفسك بها ؟

اليس التسليم لمشيئته وارادته قيداً تضعينه على عنقك وهو اشد فتكا من قيود الشرائع والقوانين ؟

اليس الانتحار قيداً ثانياً تقيدين به نفسك تجاه خالقها كما انكِ تقيدين ايضاً جسدك بسلاسل الموت قبل اوانه ؟

الا تعلمين ان كل شيء لذيذ وجميل في هذه الحياة ولكن التضحية اجمل منه ؟

. . .

فلنفترض جدلاً انكِ جازفت بجسدك ارضاءً لحبيبكِ فهل تثقين به انه لا يتركك الى الموت ؟

وهل تقدمين عَلَى هذه المجازفة وانت ترتعين في حجر ابو يكِ ؟

وماذا تعملين اذا وهبت اولاداً ؟ فهل تثقين ان حبيبك يقرّبهم ويعتني بتربيتهم ؟

او بالاحرى هل تقدمين على الاجهاض وتقطعين نسلك بيدك نزولاً عند شهواتكِ وشهوات حبيبكِ ؟

وهذا مما لا اعهده بكِ لانك من اصحاب الضمائر الحية والوجدان الخالص .

وهل تعتقدين ان اولادك الذين يكونون بحكم الطبع اولاد حبيبك الاثيم يشبّون على صحة المبادئ وكمال الاخلاق ؟

فاذا كان الانسان قد ابتدأ منذ اجيال يهتم بتحسين نسل

الحيوان والنبات فكم هو حريٌّ اذن ان يحافظ على تحسين نسله ؟
ولا تحسين الا بتناسل المتكافئين صحة وعقلاً وادباً وخلقاً ·
فهل هذا الرجل الخليع الذي لا يفكر الا بشهوات جسده خليق بان يكون اباً لاولادكِ ؟
اذن لا يجب عليكِ ان تحفلي كثيراً باللذة الطبيعية لأنها ليست جوهر الحياة بل عرَضاً من اعراضها · اما ذلك الجوهر المنشود فيقوم في احياء النسل وفي المحافظة على تقدمه ورقيه ·

· · ·

كلنا يا سلمى نشتهي النساء كما انكن تشتهين الرجال ولكن يجب علينا جميعاً ان نحول هذه الشهوات الجسدية غير المشروعة ! الى شهوات روحية ·
واذا لم نفعل ذلك فماذا يكون مصير العائلة البشرية في الغد ؟
أتريدين ان نعود القهقرى ونرجع الى العصر الحجري والحياة الوحشية القديمة ؟
والان بماذا يتميز البشر عن الحيوانات ؟
اليس بمقدرتهم على كبح جماح شهواتهم ونزعاتهم غير المشروعة
كل منا يا سلمى يشتهي متنيات جاره ولكن لا يحق له ان

يسلبه اياها بل عليه ان يجدّ و يكدّ ليحصل على مثلها بعرق جبينه

وكل منا ايضاً يشتهي ان يكون حاكماً منسلطاً على العباد ولكن افضل المشتهيات واسماها ان يكون لدينا من الصفات ما يؤهّلنا ان نتسلط على القلوب والعقول والضمائر لا علَى الرقاب ·

· · ·

لا تستسلمي الى حبيبكِ اليوم فتندمي في الغد ·

ضحّي بهذه اللذة الوقتية لتحصلي على اللذة الدائمة ·

ودعي ثمرة الحب يجنيها الرجل الذي اوجدته الطبيعة ليكون بعلك الامين ورفيقك الدائم ·

انتِ لا تعلمين الآن من هو هذا الرجل ! انتظري قليلاً فتعلميه وستقرين عيناً باخلاقه وصفاته اللامعة ·

· · ·

انا لا ادعوكِ ولا ادعو احداً الى التبتل ولكن لا يجب ان نعطي الشهوات مداها بل علينا ان نرحل من هذه الحياة ونبقي شيئاً في الكأس دون ان نكرعه حتى الثمالة

وهذا الشيء غير المشروب هو الامل المنشود الذي يرافقنا

الى القبر . او بالاحرى هو الحياة العذبة الباقية لنا بعد الموت .

قد وعدتكِ مراراً بحديث غرامي وغداً ابرّ بوعدي لتعلمي جلياً انك قادرة ان تحصلي كما حصلت على الراحة والطمأنينة وان تتمتعي كما تمتعت بهناء الحياة ونقاوة الضمير .

والآن اذا شئت ان تتعرفي الى منزلي فتعالي معي اليه اذ ربما احوجتك الظروف الى زيارتي .

. . .

فمشت سلمى برفقته وتعرفت الى مسكنه ثم ودعته وذهبت في سبيلها .

اليوم الثامن

الحكيم يقص على سلمى موجز حديث غرامه

في صباح اليوم الثامن ابكر الحكيم في خروجه من البيت ولم يسر بضع خطوات حتى التقى بسلمى على قارعة الطريق · فترافقا الى حديقة معامل السيوفي · وهناك اخذ يقص عَلَى مسامعها موجز حديث غرامه ·

قال : كنت في الحادية والعشرين من عمري حينما احببت حباً شديداً وكانت الفتاة التي شغفت بها تبلغ من العمر خمسة عشر ربيعاً · وبقينا متواصلين ثلاث سنوات الى ان جرت حوادث مهمة اقصتني عنها ولا لزوم لايرادها الان ·

فصرت اختلس الفرصة تلو الفرصة لالتقي بها وابرد غليلي من ينبوع حبها ·

ولما اشتدت علينا المراقبة وخسرت كل امل بمواجهتها اخذت ابعث اليها بالرسالة تلو الرسالة وكانت تجيبني عَلَى كل منها مظهرة

لي فرط هيامها وشدة تعلقها بي وما كانت تقاسيه من اجلي من ظلم اهلها وسوء معاملتهم لها .

ولما رأى ابواها انه يستحيل عليهما اقناعها لقطع مواصلتها لي لأنها لم تكن تعير التفاتاً الى نصائحهما المتكررة ولا الى تهديدهما المتواصل اوعزا الى كاهن اعترافها وطلبا منه ان يرشدها الى طاعتهما ويعظها بان رضى الوالدين من رضى الرب .

وفي ذات يوم استلمت منها رسالة لم يزل مضمونها عالقاً في ذاكرتي وهذا نصه :

لا اعلم ايها الحبيب اذا كنت لاتزال تتذكر الاب لوقا الذي عرّفتك اليه مرة في كنيسة القديس يوحنا وقلت لك عنه انه مرشد اعترافي .

منذ شهر ابتدأ هذا الاب المحترم يأتي يومياً الى زيارتنا وهو يرشدني دائماً لأترك مواصلتك ويعظني بطاعة الوالدين والرضوخ لارادتهما

فعندئذ اخبرته عن شدة تعلقي بك وانه يستحيل عليّ قطع مواصلتك رغماً من فرط محبتي لوالديّ لانك من الرجال الممتازين بصفاتهم وآدابهم ومن اللامعين بنضوجهم العقلي وحسن اخلاقهم

ومما قاله لي : مهما كان اعتقادكِ عظيماً بادب هذا الشاب وكمال عقله واخلاقه فهل تتصورين انه فريد في هذا الكون ؟ ألا يوجد من يشاكله ؟ او بالاحرى من هو افضل منه ؟

فلماذا اذن لا تعلقين غيره فعندئذ يهون عليك تركه فتحصلين عَلَى رضى والديك و بركتهما .

فكما ان الحديد يقطع الحديد هكذا المحبة الجديدة تقطع من قلبكِ اوصال المحبة القديمة وتقذف بها خارجاً .

ولكن عبثاً ايها الحبيب يحاول اقناعي ما زلت لا ارى سبباً موجباً لتركك .

. . .

هذا كل ما كتبته اليّ في هذا الموضوع .

وبعد خمسة اشهر اعادت اليّ بغتةً وبلا سبب موجبٍ كل رسائلي وعلّقت على احداها هذه العبارة التي وقعت عليّ في ذلك الحين وقع الصاعقة .

لأسباب مهمة ارجو ان لا تسألني عنها عزمت عزماً ثابتاً ان اقطع مواصلتك نهائياً

اني مرجعة طيه كل رسائلك وارجو ان تعيد اليّ حالاً بصورة مضمونة جميع رسائلي .

السبت ٣٠ نيسان سنة ١٩١٦

وفور تلاوتي هذه الكلمات كنت في مخزني واقفاً بين المستخدمين فتغيرت حالاً ملامحي من شدة التأثر وارتعشت كل مفاصلي واصطبغ وجهي بالدم .

فذهبت تواً الى مكتبي وهناك شعرت بالم مبرح وحزن شديد . ثم اخذ الاصفرار والسكون ينتابانني الى ان امسيت كأنني جثماناً لا حياة فيه .

في تلك الساعة شعرت بتضعضع جسدي وشلل قواي ، اما عقلي فبقي وحده غير متضعضع يشدد عزيمتي ويرشدني الى الصراط القويم .

وطالما سمعته في محنتي يهمس في داخلي قائلاً :

لماذا كل هذا الاسى وهذا القنوط ما زلت غير مرتكب جرم يستحق هذه القطيعة .

. . .

و بعد مدة جمعت شتات قوايـ مستظهراً على ضعفي ثم

ذهبت تواً الى منزل الحبيبة حاملاً رسائلها لاعيدها اليها يداً بيد ما عدا واحدة ابقيتها معي على سبيل الذكرى ولم تزل حتى الآن محفوظة في خزانتي .

وطئت عتبة البيت بلا اشعار سابق ودخلت مخدعها فوجدتها جالسة ازاء طاولة مستديرة ترتي جواربها وبجانبها امها تحوك قماشاً . فامتقع لونها حين رأتني داخلاً مضطرباً وخافت امها عليها فهدأت روعهما ثم خاطبت الحبيبة قائلاً :

هذه رسائلك جئتك بها عملاً بمشيئتك لاعيدها اليك لكنني اود الان ان اتلو على مسامعك بعض نبذاتها :

فاخذت اقرأ عليها ما اقسمته لي مراراً عن شدة وفائها وتعلقها بي الى الموت وان لا قوة في الكون تقوى ان تصدها عني . ثم سألتها كيف الان تكذبين نفسك وتنبذين مواصلتي بلا اثم ولا حرج؟ هل كان حبك لي كقسمك خداعاً ورياءً او ماذا ؟

فطفقت تبكي دون ان تنبس ببنت شفة .

وبينما هي مسترسلة في البكاء تناولت مبضعاً كان على طاولتها وجرحت به يدي اليمنى جرحاً بليغاً لم يزل اثره ظاهراً واخذت الطخ رسائلها بدمي واحدة واحدة قائلاً لها :

ان هذه اليد التي كتبت لك مئات الرسائل لم يزل بها دم يخصك . وها هو الان لاصق برسائلك يدلّ عَلَى امانتي وعدم وفائك .

ولما وعت كلامي ورأت فيضان دمي اغمي عليها . فادركتها امها بالمنعشات فاستفاقت و كان الدم لا يزال سائلاً بغزارة من يدي فاقتربت مني وطلبت ان تضمد جرحي فمددت لها يدي فضمدتها وهي تداعبني وتلاطفني كسابق عهدها .

فاجبتها : لا بأس هذه آخر مداعبة استقبلها منك وآخر لطف يذكرني بك .

ثم ودعتها وخرجت من البيت تاركاً لها رسائلها .

رجعت الى مخزني و كانت الشمس آذنت بالغروب فاقفلت محلي وذهبت تواً الى غرفتي و بقيت اتمشى فيها حتى الفجر .

في تلك الليلة التي لم اعرف بها النوم كانت احلامي الضائعة تستنزف كل ما في اجفاني من الدموع وافكاري المزعجة ترشقني باحدّ سهم من سهام الهواجس والاضطراب . فتوترت اعصابي واشتد خفقان قلبي واسرع نبضي حتى امسى كل ما فيّ يرتجف ارتجافاً .

قضيت اسبوعاً كاملاً على هذه الحالة الرائعة لا انام في الليل الا قليلاً وكان نومي الضئيل كسهري مزعجاً مقلقاً .

وفي خلال النهار كنت اترك مخزني في عهدة المستخدمين واذهب وحدي الى البرية لعلي افقد صبراً وعزاءً .

ولكني في المساء كنت اعود بخفيّ حنين .

ولما عيل صبري على فراق الحبيبة عدت اليها استعطفها وانا اشرق بدموعي وعلائم الوهن والضعف بادية على ملامحي .

فقالت لي : لماذا كل هذا البكاء وهذا الوهن ؟ اين حزمك وعزمك ؟

لماذا لا تتدارك نفسك بقوة ارادتك التي تفل الحديد وتداوي ضعفك بدواء حكمتك ومتانة خلقك ؟

فعندئذ يهون عليك تركي كما هان عليّ تركك .

الحق اقول لك الان : اني قطعت مواصلتك بقوة ارادتي فقط ارضاء لابويّ لا لخلوّ قلبي من محبتك فانني لم ازل احبك وسوف ابقى الى الموت

فاجبتها : لا اعتقد مطلقاً ان سعيك لارضاء والديك ابعدك

عني لان العلاقة الحبية المتينة المتأصلة في العروق هي دائمًا فوق محبة الابوين وارادتهما .

فماذا جرى لكِ اذن ؟ ومن غيرّكِ عني ولواك عن محبتي؟

فاذا كانت يد الهيّة . قد اقصتك عني فانا خاضع لمشيئة الله

واذا كانت يد بشرية فربما رضيت بي نفس لايفتنها الجمال ولا تغرّها الاباطيل .

اما جسدي المتضعضع المرتجف امامك الان والذي احبك حتى العبادة صارفًا دمعه ودمه في سبيل رضاكِ والمحافظة على حبك الى الموت فهو لا يقبل لك عذراً ولا يرضى عنك ابداً .

ثم ودعتها وانا على احر من الجمر وعدت الى غرفتي يائساً لا امل لي بها ولا بالسلو عَلَى فراقها

. . .

قضيت عدة ايام تائهاً من مكان الى مكان غير ملتفت الى تجارتي ولا الى ضياع مالي مهملاً نفسي كل الاهمال لاني بت اشعر بان حياتي ومالي لم يبق لهما ادنى قيمة في نظري

و كنت على مرور الايام بدلاً من ان اجد راحة وسلواناً ازداد وجداً وانيناً كما ازداد شوقاً وحنيناً .

فعولت ان اعود اليها ثانية لاشرح لها مفصلاً دقائق حالتي وتباريح وجدي .

فقصدتها ودخلت مخدعها بدون استئذان فوجدتها مستلقية على فراشها تشكو صداعاً . وحينما اخبرتها بحالتي قالت : بالله عليك لا تزدني هماً والماً ولا تحملني فوق وسعي !

احمل نصيبك ودعني احمل نصيبي

اذهب بسبيلك وانشد راحتك بنفسك ودعني الان انشد راحتي بنفسي .

ولما سمعت هذه الكلمات شعرت كان سخائم الوجود كلها وقعت عليّ فتركتها دامعاً وقلبي يتفتت اسىً دون ان انطق بكلمة واحدة

و بعد اسبوع ضاقت الدنيا على رحبها بوجهي مع اني اجهدت نفسي كثيراً لاحتمل فراقها بصبر فلم اطق صبراً .

فعزمت ان اعود الى مكاتبتها و بعثت اليها بكتاب مسهب اشكو سوء حالتي .

وهذه بعض فقراته :

حبيبتي :

زرتك منذ اسبوع فوجدتك متوعكة قليلاً عسى ان تكوني اليوم على تمام الصحة .

والان ابعث اليكِ بهذه العجالة لاسألك عن قولك الاخير لي : « اذهب عني وفتش على راحتك بنفسك » هل كان ذلك تسرعاً منكِ وثورة نفسية عارضة بسبب مرضكِ او انت ماضية في مقاطعتي ابداً ؟

ارجو منكِ جواباً عاجلاً وعذراً على لجاجتي . لان اللجاجة تتولد دائماً في القلوب المضطربة الحاملة اثقال مكاره الحياة واشدها ايلاماً .

الحق اقول لك الان : انني ما زلت منذ فراقكِ لا اعرف راحة الا راحة ضميري . فقد قمت بواجبات حبك خير قيام .

ان الصعوبات الكثيرة التي طرأت علينا لم تكن لتزيدني الاّ تعلقاً بكِ وتضحية وحباً لشخصك الكريم .

لقد تحققتِ مراراً صحة امانتي وشدة وفائي وكيف انني كنت في احرج الحالات لا اشكو في سبيل حبك عذاباً ولا تعباً .

والان يبدو لي ان ذلك الحب الذي كان يجمع بين قلبينا

ويملأها حياةً واملاً اوشك ان يحتضر في فؤادكِ

لقد امسى كالوردة الذابلة واوراقها نصيبكِ واشواكها نصيبي

انا قانع بحظي واهون عليَّ ان اكون من المجروحين لا من الجارحين .

حبيبتي : لا يدُرْ في خلدك ابداً انني من اولئك المنتقمين الذين يحملون في صدورهم نفساً دنيئةً وقلباً اثيماً .

انا والحمد لله احمل قلباً لا انكر عليك شدة خفقانه وجداً من جراء صدكِ وجفاءكِ لكنهُ لم يزل مغموراً بالشرف والنبل .

واملك نفساً لايسعني ايضاً ان انكر عليك انسحاقها ورزوحها تحت اثقال اليأس والهواجس لكنّها لا تعرف ثأراً ولا خداعاً .

يا ليت لي الان جسداً مركباً من حديد وخشب كيلا اشعر بوطأة فراقك . لكني لسوء الحظ مركب بشري خاضع لسلطة الاحساس والعواطف .

على ان هنالك فكرة واحدة تسليني نوعاً وهي : لا حياة بلا حب ومنتهى كل حب مأساة فلا بدع اذا امست حياتي مأساةً

حبيبتي : اذا لم اجد راحةً في هذه الحياة وقضي عليَّ في شرخ

شبابي . فانا واثق بان نفسي تستريح في سماء الخلود كما يستريح جسدي في احضان الارض .

واذا احتملت بصبر الم فراقك وعشت طويلاً فعندئذ اصل بحكم الطبع الى طور الكهولة . هذا الطور الذي يزدان بالحكمة والاختبار ولا يغترُّ الاَّ بالحقيقة الناصعة . بيد ان الشباب لا يتحلى الا بالجمال الطبيعي ولا يلهو الا بالزخارف الباطلة .

حبيبتي : انت الان في ريعان صباكِ فيجب عليك ان تفكري جيداً في مستقبلكِ وان لا تعلقي احداً قبل درس واختبار لانه من الصعب ان يحل الجفاء موضع الحب .

اسأل لك من صميم الفؤاد حياةً سعيدةً وزوجاً فاضلاً اميناً .

اما انا فلا اعلم ما قد يطرأ عليَّ . واذا استطعت ان اتخلص من تجارتي فسأشتغل ظيلة عمري في الادب لعلي انعش نفسي الذابلة .

غداً اذهب الى المدينة التي رأيتك فيها لاوَّل مرَّة . وهناك ازور البيت الذي تلقّيت فيه منك الابتسامة الاولى .

ثم اعود الى هذه الحاضرة واذهب حالاً اليكِ وادخل غرفتك

التي اسمعتني فيها كلام الحفاء وبلغتني حكم المصارمة وهناك اودّعك الوداع الاخير .

. . .

هذا آخر ما خطته انا ملي اليها

والان اطلت عليكِ الحديث ياسلمى حتى فات الظهر وتأخرت عن موعد رجوعك الى البيت فاستميحك عذراً وارجو منك ان تذهبي في سبيلك وغداً اتم لك قصتي .

سلمى — انا مرتاحة كل الارتياح الى حديثك وكنت اود ان لا تقطعه عني لأرى كيف وجدت راحة وسلواناً بعد هذا الياس وهذا العناء . ولكن لا بأس فالى الغد ان شاء الله .

اليوم التاسع

الحكيم يخبر سلمى عن شدة عذابه و يأسه
بعد جفاء حبيبته له

قضت سلمى ليل ذلك اليوم وهي تفكر في قصة الحكيم . وكم تمنّت لو يقدّر لها ان تعلم حالاً كيف حصل عَلَى راحته بعد هذا اليأس القاتل .

وقبل انبثاق الفجر جاءت الى منزله تستشيره فوجدته لا يزال نائمًا . وطفقت تتمشى في حديقته منتظرة بذاهب الصبر ساعة قيامه .

و بعد حين استيقظ الحكيم وفتح النافذة على عادته فوجد فتاة تتمشى في حديقته . ولما عرفها اومأ لها بالدخول الى البيت ثم ارتدى ثيابه واتى اليها فصافحها ودعاها الى طعام الصباح و بعد ان اكلا مشيا الى مكان نزهتهما .

فسألته سلمى : وماذا حدث لك بعد تلك الرسالة ؟

فاجابها الحكيم : عند وصولنا اسرد لك ما بقي من قصتي

واعدك بأنني لا اعود الى البيت قبل انهائها ·

والان كيف حالك ؟ هل حصلت على بعض الراحة او لا تزالين عَلَى قنوطك ويأسك ؟

سلمى — لا ازال على حالتي ايها الحكيم غير اني لا اخفي عليك ان قصتك حملتني على التفكير بانني لست وحدي مظلومة في هذا الكون · فكثيرون هم الذين يقاسون الجور والشقاء نظيري اجل لم اجد حتى الان راحة ولا صبراً بل وجدت نوعاً من التعزية الباطنية ·

الحكيم — هذه طبيعة البشر يا سلمى فحينما يرى المرء احزان غيره تهون عليه احزانه وكلما لمس غبطتهم وهناءهم يتجسم خطبه عليه ويزداد وحشة ويأساً ·

لقد خبرت ذلك بنفسي لأنني كنت بعد جفاء الحبيبة اقامي الامرّين كلما وقع نظري على متحابين يتمشيان معاً وسيماء الغبطة والحب عَلَى وجه كلٍ منهما · وكنت في تلك الايام الحرجة اتعزى نوعاً كلما حادثت يائساً او حزيناً ·

...

بمثل هذه الاحاديث كانا يتحاوران على الطريق · ولما وصلا

الى حديقة السيوفي ذكّرته سلمى بوعده فأخذ يقص عليها ما بقي من رواية حبه قال :

وبعد مرور شهر على تلك الرسالة عيل صبري لعدم مجاوبتها فعدت اليها مستفسراً سائلاً :

هل استحق جواباً عَلَى كتابي ؟

فقالت : انت تستحق كل خير ولكن اعذرني الان لعدم مجاوبتي على خطابك لأنني اقفلت هذا الباب منذ زمن ولا سبيل الى فتحه ثانيةً .

فاجبتها : اذن ارجعي اليّ رسالتي وعَلَى الله اتكالي .

فقامت للحال وفتحت خزانة ثيابها واتتني برسالتي الاخيرة فوضعتها في جيبي ثم خاطبتها بهدوء وسكينة لا اعلم حقاً من اين حصلت عليهما في تلك الساعة لأن اعصابي كلها كانت متوترة: يلوح لي انني خسرت كل امل ورجاء . والان قبل ان اودعك الوداع الاخير اودّ ان اسمعك هذه القصة الوجيزة ؟

منذ ثلاث سنوات ادركت احدى الفتيات سن البلوغ فقامت تفتش على حظها وعثرت في اول طريقها عَلَى جوهرة ثمينة فوقفت امامها معجبة بجمالها ثم اخذت بعد حين تتساءل هل تقتبلها كحظ

لها او تظل سائرة في طريقها لعلها تصادف ما هو اعظم منها .

وبعد تأمل طويل صممت على تركها ومواصلة طريقها . فمشت لكنها لم تسر قليلاً حتى عثرت على جوهرة ثانية اقل حجماً ورواءً من الجوهرة الاولى . فلم تعرها التفاتاً وظلت ماشية فوجدت غيرها وهي اصغر منها واقل قيمةً .

وهكذا ظلت تمشي الى ان بلغت غاية الطريق فوجدت هنالك جوهرة صغيرة الحجم لا رونق لها ولا بهاء . فتذكرت جوهرتها الاولى وبكت بكاءً مراً على تركها . ثم رجعت مسرعة تنشدها رغم شدة تعبها . ووصلت الى مكانها واخذت تفتش عليها فلم تجدها . لأن يداً جاءت بعدها فتناولتها .

ولما اتممت هذه القصة وهممت بوداعها قالت :

ما ذا تعني بذلك ؟

فاجبتها انت تعلمين مغزاي بيد اني وأيم الحق اتمنى من صميم الفؤاد ان تعثري على جوهرة اشد نقاوة واغلى قيمة من تلك التي نبذتها . ولكن اذا كان ذلك من المحال فاقبلي ما يتيسر لك واحذري ان تفكري بالعود الى جوهرتك الاولى .

ثم ودعتها ومضيت في سبيلي .

في تلك الليلة سعيت جهدي كي احتمل لوعة فراقها فلم استطع . وعولت عَلَى ترك المدينة لأبتعد عنها لعل البعاد يخمد نار حزني ويأسي .

فسافرت في قطار الصباح الى الارياف وتركت ادارة محلي في عهدة المستخدمين اذ لم يعد يهمني في ذلك الحين ان اربح او اخسر .

القيت عصا الترحال في بلدة جميلة واقعة على شاطىء البحر ونزلت في احد فنادقها القائم على الضفة الشمالية حيث كانت الامواج تلاطم جدرانه ليل نهار .

وكم وقفت على تلك الضفة حزيناً متسائلاً :

كما ان امواج البحر تقتحم بلا انقطاع جدار هذا الفندق هكذا امواج بحار الاسى تقتحم جدار نفسي .

ان امواج الفندق ترجع خاسرة لا تؤثر فيه لصعوبة بنيانه ومتانة اساسه . اما امواج يأسي فلا اعلم ما اذا كنت احتمل هجماتها المتواصلة او تهوي بهيكلي الى الحضيض

كنت كل صباح اجلس هنالك وحدي حتى الظهيرة وكانت

قطرات دموعي تمتزج بماء البحر فتضيع في تياره كما ضاعت راحتي في تيار الحب .

وكنت في ذلك الحين ازداد لوعة كلما تخيلت حبيبتي التي كنت احسبها قطعة غير منفصلة عن نفسي امست لا تشعر بحبي ولا بألمي كما لا يشعر هذا البحر العظيم بدموعي

وبعد الظهر كنت اذهب الى البرية القريبة وامشي وحدي تائهاً في الحقول . وهناك كان يتراءى لي ان كل ما في الطبيعة افضل مني حتى احقر النبات وادنى الحشرات . لأنني كنت اتخيلها كلها طليقة من قيود الاسى ما عدا نفسي الرازحة تحت اثقالها .

وفي ذات يوم ذهبت باكراً الى الحقل فابصرت العصافير تزقزق متنقلة من غصن الى غصن وكان ذهني حينذاك هائجاً يتنقل من فكر الى فكر .

فقلت في نفسي : يا ليتني مثل هذه الاطيار الصغيرة التي تتنقل على الافنان مبتهجة في الحياة لا كما يتنقل ذهني مكرهاً من خاطرة موئلة الى اخرى اشد منها ايلاماً .

وقد نظمت قصيدة في هذا المعنى لا تزال بعض ابياتها عالقة بذهني وها هي على علاتها ·

يا ليتني طائرٌ يشدو على الشجرِ
لكي اناجي نسيم الصبح في السحرِ
اطير فوق الربى والزهر منتعشٌ
على الغصون فأجني اطيب الزهر

· · ·

ومنها :

لو كنت طيراً قضيت العمر مبتهجاً
فالطير يحيا بلا هم ولا ضجر
امشي عَلَى الارض ذا هم اخا جزع
والطير من شجر يمشي الى شجر
ان طار فوق اديم الارض مرتفعاً
في الجو حلّقت في جوٍّ من الفكر
وانظم الشعر في التحنان مبتكراً
والطير يألف لحناً غير مبتكر

واعشق الغادة الحسناء انشدها
والطير ينشد غصناً يانع الزهرِ
كم همت في الغاب ادعوها وارقبها
ولم ازل هائماً في المهمه القفر

ومنها :

ان كانت النفس للرحمان عابدةً
فالعين معبودها ما راق للنظر
ان الجمال اله القلب احسبه
عبادة القلب موحاة من البصر

وهاجني الوجد اليها يوماً فنظمت قصيدة هذه بعض ابياتها :

يا ربّة اللطف والآداب لا تسلي
ما حال صب بنار الحب مشتعلِ
اذابه الوجد شوقاً والبعاد اسىً
ما عاد لي املٌ بالوصل يا أملي
ولست اشكو رقيباً عنك ابعدني
ولست مسترسلاً في اللوم والعذل

هي البوارح تأتي لا مردّ لها
فتذبل الحب في ساعاته الاول
وهي الطوارئ كم حلّت على بشر
وهي التقادير كم جارت على دول
مثل الزوابع ان هبّت على شجر
تحوّل الغصن من غض الى ذبل

. . .

وحدي اقاسي تباريح الهوى فانا
اليف همّ عن الاوطان في عزل
فان مرضت وطال الداء في جسدي
لا امّ تنظر في دائي وفي علي
النفس بعد النوى في الجسم قد سئمت
والارض في رحبها ضاقت على رجل

. . .

صرفت شهراً كاملاً في تلك المدينة التي لم اجد بها اقل راحة لنفسي لا في نظم الشعر ولا في ارتياد البحر ولا في مسالك القفر فصممت على العودة الى محل اقامتي . وحين وصولي ذهبت

تواً الى منزل الحبيبة . لاني لم اعد قادراً ان املك نفسي الظامئة الى مراآها .

فقابلتني بفتور وقلة اكتراث كأن لم يكن بيننا سابق عهد ولا سالف غرام .

وجاشت نفسي فخاطبتها بلهجة حازمة قائلاً :

لماذا كل هذا التعنُّت والكبرياء ؟

ألا تعلمين ان الدنيا ملؤها فتيات من نظائرك وفتيات افضل منكِ ! وكلما مررت بشارع التقي بعشرات منهنَّ .

اذا حافظت على حبك فذلك يدل عَلَى حسن شيمتي ومتانة خلقي . ولهذا السبب ترين محبتي لك ثابتة كالجبال .

امَّا انت فما كنت اخالك تكفرين بعهدك وتعبثين بحبك فاجابتني بخشونة : كفاك غلاظة

وما وقع جوابها عليَّ حتى وقفت هنيهة صامتاً ثم تحرَّكت شفتاي قليلاً وخرجت مني هذه الكلمات التي كان صوتي الضعيف يلقيها همساً في اذنها :

يعز عليَّ كثيراً ان اري نعجتي اللطيفة تتحول الى ذئبة خاطفة

ولكن لا بأس فهذه امثولة اتلقاها منك ولا انساها وهي :
ان المرأة نعجة اذا احبت وذئبة اذا ابغضت

فهتُ بذلك وعدت الى صمتي جامداً مكاني جمود الموتى. وكانت حبيبتي واقفة على بضع خطوات مني محدقة في الارض دون ان تبدي كلاماً ولا حراكاً

قضيت بضع دقائق على تلك الحالة لا ادري احي انا ام ميت ثم عادت اليَّ يقظة الحياة فاخذت اكلمها بصوت ضعيف متقطع يشبه لهاث المحتضرين

وكانت نبراته بعيدة الغور كأنها ليست خارجة من هيكلي بل من روح خفية في هذا الهيكل

وبقوة هذه الروح خاطبتها مستشهداً بابيات زهير :

وعين تتمنى ان تر اكم قد غضضناها
ورجل تطلب المس عى اليكم قد منعناها

اقسم لكِ انا الخائر القوى الواقف مرتجفاً امامك الان انني اتمنى اذا كانت عيناي لا يبهرهما في هذا الكون الا جمالكِ ولا يشبعهما الا مرآك ان تفقدا نورهما الى الابد

واذا كان ذهني لا يفكر الا بك ولا يرغب الا في لقائك فاتمنى ايضاً ان اصاب به ولا اعود اليكِ .

واذا كانت رجلاي لا تتحولان عن طريق بيتك فاولى بي ان اكون مقعداً كسيحاً .

واذا كان جسدي هذا لا تلذ له الحياة الا بقربك فاؤثر الموت على الحياة ولا استعطف فتاة مثلك تراني ثقيلاً .

الحق اقول لك انني لن ازعجك ولا ادخل بيتك ولا اجتمع بك تحت سقف .

وثقي انني انتحر ولا احنث بيميني .

انا ذاهب عنكِ الى الابد .

انا ذاهب الى الحياة ، الى الموت .

وخرجت من لدنها لا ألوي على شيء . وسرت في الشارع المزدحم بالناس كالسائر في التيه . لم اتمثل امامي غير تلال متراكمة من رمال اليأس والاسى .

ولهذا السبب كنت وانا اقطع تلك الجادة اتخيل نفسي كالمسافر في الصحراء بين سافيات الرياح .

فكما انه لا يرى امامه غير كثبان الرمال تتصاعد في الجو

وتقذف به يميناً وشمالاً . وكيفما اتجه لا يرى ملجأ يلجأ اليه ولا مكاناً يسند اليه رأسه . أفلا يتخيل الهلاك اقرب اليه من النجاة ؟

هكذا كانت عواصف افكاري في تلك الساعة تقذف حواسي الخمس بجامات سمومها وتحرق فؤادي بهزيم صواعقها ورعودها حتى امسيت موقناً بانني على شفير الموت .

. . .

قضيت شهراً ويزيد لا اعرف الراحة ولا النوم . وكنت افتش على راحتي الضائعة في كل مكان دون ان اعثر عليها .

تفقدتها كثيراً في البراري والحقول وبحثت عنها طويلاً في شوارع المدينة ومراسحها وحاناتها وملاهيها فلم اجدها .

وكم قصدت بائعات اللذة منقباً عنها فلم اشعر بلذة اوسلوان لقد ضلّت راحتي وعبثاً كنت انشد ضالتي .

. . .

وفي صباح احد الايام عادني صديق حميم من طلاب الطب وبعد ان قضى ردحاً معي قال لي :

دنت ساعة علم التشريح ثم هم بوداعي . فأجبته : هل من مانع يمنع ان اذهب معك ؟

قال : لا . فرافقته الى المدرسة . ودخلت انا واياه بهواً كبيراً متسعاً مخصصاً لعلم التشريح يحوي ما يزيد على ثلاثين طاولة من الرخام شاهدت على اكثرها جثثاً بشرية عارية مختلفة الاعمار .

فاخذت اطوف بين الجثث متأثراً مرتعشاً . اما صديقي فلم يعبأ بذلك وكذا رفاقه الطلاب لانهم ألفوا هذا المشهد الذي رأيته مزعجاً مرعباً حالة كونهم لا يرونه الاّ عادياً كسائر المشاهد .

فقلت في نفسي : اذا كان هؤلاء الطلاب غدوا بقوة الاستمرار يألفون الجثث والامراض الخبيثة دون ما رهبة ولا جزع ! فلماذا اذن لا اعتاد ان اعيش بمعزل عن الحبيبة دون ما الم ولا كدر ؟

ولماذا لا آلف اليوم صدها وجفاءها كما الفت بالامس حبها ولقاءها ؟

ثم أجلت نظري فيما حولي فوجدت كل طالب واقفاً امام جثة وبيده آلة من آلات التشريح يشتغل بها برغبة ونشاط . وازاء كل جثة آنية لوضع القطع البشرية التي لا لزوم لها او بالاحرى تلك التي فرغوا من درسها وتمحيصها .

فوقفت لحظة امام كل منهم متأملاً عناءهم ونشاطهم .

ثم حولت نظري الى صديقي فوجدته منغمساً بتشريح رأس شاب مات في ريعان صباه .

فوقفت بجانبه طويلاً انفرس في عمله متأملاً في هذا الجثمان الذي كان بالامس ممتلئاً نشاطاً وشباباً كيف قهره الموت وجعله بين ايدي الطلاب كأعوبة بين ايدي الاطفال .

وكما يدقق الطفل في درس العوبته ويفكك حلقاتها وبراغيها ليعلم ما فيها هكذا كان صديقي يجول بمبضعه مفتشاً على اعصاب تلك الجمجمة وخلاياها ممعناً كل الامعان بدقة تركيبها .

وبعد ان اشبعها درساً وتمحيصاً قال لي :

انظر يا صديقي واشار الى اعصاب الاذن والعين .

هذه آلة السمع وهذه آلة النظر تأمل مليّاً بهما ترى عجباً في دقة صنعهما .

ثم اشار الى الدماغ قائلاً : وهذه ايضاً آلة صغيرة لكنها مدهشة لأنها تولد في معملها المؤلف من هذه التلافيف والخلايا القوى الذهنية التي تسير الانسان حسب مشيئتها وارادتها

فتأملت كثيراً في دقة تركيب آلة العقل فرأيتها تحير العقل

ثم سألته عما اذا كان يعرف صاحب الجثمان : قال نعم : هو شاب كان يشتغل في المستشفى واودت بحياته ثوبة قلبية منذ ثلاثة ايام .

فسألته ان يهبني جمجمته بعد انجاز تشريحها فوعدني بها .

. . .

وفي مساء ذلك اليوم قضيت ليلتي بكاملها وانا اتمشى في غرفتي مفكراً بحالتي التاعسة متأملاً في تلك الجثث الباردة التي لم تشعر بوخز الطلاب الذين كانوا يشرحونها بمباضعهم الحادة .

فقلت في نفسي : كما ان الموت هو الذي اراح تلك الجثث من شعورها وآلامها هكذا ايضاً سينقذني حتماً من شعوري وآلامي

ان فكرة الموت هي الاولى التي ولدت في نفسي قبساً ضئيلاً من العزاء .

. . .

لقد انهيت لك قصتي يا سلمى وغداً اخبرك كيف انتصرت عَلَى اليأس وحصلت على الراحة والطمأنينة

فاجابته سلمى : آه كم أتمنى لو يتسنى لي ان اسمع اليوم رواية انتصارك لعلني اقتفي اثرك فانتصر مثلك على متاعبي ويأسي .

الحكيم — هـذا هو كل رجائي لأنني واثق كل الثقة بظفرك العتيد ولكن لافرق بين اليوم والغد . فاذهبي الى بيتك مطمئنة وصباحاً نلتقي هنا ان شاء الله .

ثم ودعها وذهب كلٌّ في سبيله .

اليوم العاشر

الانتصار على اليأس

ذهبت سلمى الى بيتها واخذت تفكر في قصة الحكيم وتقابلها بقصتها . فرأت شبهاً واضحاً بين يأسها ويأسه لأنهما خرجا من مصدر واحد هو مصدر الحب القاسي الشائن

ثم وقفت طويلاً تمحص فكرة الموت التي قال عنها الحكيم انها الاولى التي اوجدت بعض العزاء في قلبه .

وعند بزوغ الفجر ذهبت الى حديقة السيوفي لتلتقي به وتسمع عظته وقد كانت تشعر أنها بحاجة اليها كاحتياجها الى الغذاء والماء .

وصلت الى المكان المعهود قبل وصوله . واخذت ترقب قدومه بفارغ الصبر .

وبعد قليل اطل عليها . فقامت للحال تحييه ثم سألته فوراً ان يروي على مسامعها قصة انتصاره على اليأس لأنها تواقة الى استماعها .

فأجابها الحكيم: لهذا الغرض بكرت الان بقدومي لأني اعلم

شدة لجاجتك في مثل هذه الظروف القاهرة .

ثم ابتدأ يقص عليها ما يلي :

وبعد مرور ايام عادني صديقي الطالب مساءً واعطاني الجمجمة التي وعدني بها . فوضعتها على المنضدة قرب سريري .

وبعد خروجه اخذت احدق بها فلم ارَ غير كتلة من العظام تحمل في الفكين بعض الاسنان .

فقلت في نفسي : أليست هذه العظام التي انفقدها الان كانت منذ ايام رأساً حياً كرأسي وكان صاحبها شاباً مثلي مفعماً حياةً وممتلئاً حساً وشعوراً ؟

اين ضياء عينيه وسمع اذنيه ؟ اين عواطفه وذهنه ؟ اين قوته وضعفه ؟ اين فرحه وترحه ؟ اين هناؤه وشقاؤه ؟ اين حبه وبغضه ؟ اين امله ويأسه ؟

أليست كلها الان في حوزة الموت وقد نثرها على هامش الوجود كما ينثر اللحم عن العظم .

هكذا صرفت ليلتي مفكراً بمصير الانسان وكنت تارة اقلب الجمجمة بيدي وتارة اضعها امامي على المنضدة .

ولما انتصف الليل اطفأت المصباح واستلقيت عَلَى فراشي .

لكنني لم انم بل عدت افكر في الموت واخذت احلل الحياة الانسانية من المهد الى اللحد .

فبدت لي بعد تمحيصها انها عذاب بعذاب من الطفولة الى الشيخوخة . لأنني لم اتبين منها راحة لا في الحب ولا في البغض — لا في الالفة ولا في الجفاء — لا في الشهوة ولا في العفة — لا في الغنى ولا في الفقر — لا في الأمل ولا في اليأس .

في تلك الليلة لم افكر الا قليلاً بالحبيبة التي كانت وحدها تشغل ذهني لأن تأملي بالموت هو الذي لواني عن التأمل بها .

فقلت في نفسي : كما ان فكرة الموت هي التي اقصتني اليوم عنها فلا شك بأن مشاغل الحياة تقصيني عنها في الغد .

ان في الحياة احلاماً جمة تستوعب الفكر واعمالاً جليلة تشغل الذهن .

ان هذه الفكرة زودتني ايضاً ببعض العزاء لكنها لم تقوَ ان ترد عليَّ راحتي

. . .

وكثيراً ما كنت امشي على غير هدى الى منزل الحبيبة مسيراً بدافع الوجد والشوق اليها

لكنّي قبل ولوجي عتبة البيت كنت اشعر بقوة تستيقظني فانتبه الى قسمي — ذلك القسم الذي آثرت الانتحار عَلَى الحنث به وكنت لهذا السبب اعود دون ان الج بابها

. . .

ونهضت يوماً باكراً وبمت بلدة صغيرة قريبة من العاصمة مشهورة بجنائنها وكثرة ينابيعها قاصداً ترويح نفسي من عنائها وكربها .

فصرفت فيها نهاري متنقلاً من حديقة الى حديقة .

لكني مثلما كنت اسرح بين تلك الرياض الغناء هكذا كانت ذكريات الحبيبة تسرح في ذهني وكانت تؤلمني كثيراً وتمحو من بصيرتي جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة

فاستعنت بربة الشعر لامرّ عني ونظمت هنالك بين حفيف الاشجار وخرير المياه قصيدة تنم عن شدة المي كما تدل ايضاً عَلَى بريق الرجاء الذي بدأت اشعر به .

ثم انتزع الحكيم من جيبه ورقة قديمة العهد وقال :

هذه هي القصيدة على علاتها كما وضعتها بخط يدي في ١٦ شباط سنة ١٩١٦

بالله يا غادتي لا تكذبي خبرا هل كان حبك لي غير الذي ظهرا
هل كان ذاك الهوى وهماً اهيم به وكان كل رجائي فيه طيف كرى
هذا الجفاء بلا اثمٍ ولا حرجٍ
يضني الفؤادو يعمي اللب والبصرا
هدرت ياهند في هذا الغرام دمي ألا تخافين رباً في دمٍ هدرا
لولا الوفاء لما امسكت عنك يدي ولا تلقيت منك الاثم مغتفرا
الحب في القلب يبقي بعده اثراً كالجرح في الجسم يبقي بعده أثرا

. . .

يا غادةً تركت حبي بلا سبب ما العذر لو جاء منك القلب معتذرا
قالت تركتك لا عن هفوةٍ صدرت
بل امر ربك في ترك الهوى صدرا
فقلت يا هند هذا الظلم اجمعه والله بالعدل لا بالظلم قد امرا
هذي الاناجيل ايات الوفاء بها وتابع الظلم بالانجيل قد كفرا

. . .

ان كان قلبك خمر الجهل اسكره فكم فؤادٍ صحا من بعد ماسكرا
ستبصرين فتى قد زانه شرف ومهجة تجمع العلياء والكبرا
وتنظرين بعقلٍ ما فعلت به لا تنظر العين مثل العقل ان نظرا
ان متّ لا تذرفي دمعاً على جدثٍ فالقبر في عطش يستمطر المطرا

هناك لاتزرعي وردًا ولا حبقًا هناك لاتنثري زهرًا ولا عطرا
دعي القتاد على قبري يكلله
علي شوك الهوى في العيش قد ضفرا

. . .

عفوت عن كل ذنب منك آلمني والعفو عند خيار الناس قد ظهرا
وابحث الان عن صبر اعيش به لا عيش بعد الهوى الا لمن صبرا
ان كان زهر الهوى عني بمعتزلٍ فانني في الفيافي اقطف الزهرا
هناك ظبي الفلا في القفر يؤنسني ماضر ظبي الحمى في الدار ان نفرا

. . .

بذلت في الحب ما احويه من شرف فكنت في شرفي بالحب منتحرا
الى متى اترك الاهواء تلعب بي واحمل الهم والتعنيف والصغرا
ياواهب الصبر منك الصبر اسأله انت الميسر للانسان ما عسرا
يا باعث النور ياهادي الانام به انر شريدًا بجنح الليل مستترا
يا رازق الطير يجبيه بلا عوزٍ لاتترك القلب للسلوان مفتقرا
ومنقذ الناس من يأس ومن خطرٍ فانقذ من اليأس صبًا ادرك الخطرا

. . .

سأترك الغيد والدنيا وزخرفها تلك الاباطيل منها ابتغي الحذرا
واتبع القلم المشوق اعشقه فلا عناءً به اشكو ولا ضجرا
اسمي عَلَى جبهة الادهار احفره والدهر يترك للاجيال ماحفرا
الا اعتبر ايها القلب المذاب اسى سيبلغ الراحة القصوى من اعتبرا

من الثرى كوّن الجسم الجميل وهل
رأيت جسماً جميلاً لا يصير ثرى

وفي مساء ذلك اليوم بينما كنت راجعاً الى البيت التقيت بصديقٍ حميم كنت لم اره منذ عامين . وبعد ان حيّاني سألني : لماذا اراك هزيلاً شاحباً ووجهك متجهم عبوس مع اني اعهد الابتسامة لا تفارق شفتيك والورد لا يبارح خديك . فهل تشكو مرضاً او ماذا ؟

فاجبته : لا اشكو الاّ متاعب الحياة ومشاكلها . قال : من كان مثلك في ميعة صباه وفي ادبه وغناه لا يجب ان يشكو ولا ان يتألم من دنياه فماذا اذن يقول التاعسون والبائسون ؟

فاجبته : ربما كنت اكثر منهم شقاءً لانني اسبح الان في بحر من اليأس طغت عليّ امواجه وعصفت انواؤه .

فاذا اجتزت الشاطىء سالماً فقد اعمّر واعيش سعيداً . واذا لم اتوفق الى النجاة فلست بالاسف على الحياة .

ودعته ومشيت الى منزلي . فشاهدت على رتاجه مشهداً فاجعاً . شاهدت رجلاً كسيحاً يدبّ على الارض ديباً وبجانبه عيلته المؤلفة من امرأة عمياء تحمل طفلاً رضيعاً على منكبيها تقودها طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها وطفل اصغر منها . وجميعهم بحالة رثة موجعة تفتت الاكباد .

وعند ولوجي عتبة البيت سمعت صوت الاستغاثة يخرج من كل منهم « ارحمنا يرحمك الله » فكان هذا الصوت في اذنيّ لحناً شجياً من اروع الحان الحياة واشدها تعساً وشقاء .

فنقدت الرجل بعض النقود ثم قلت له زاجراً : الا تعلم ان من كانت حالته كحالتك يعد زواجه جناية على امرأته وعلى اطفاله الابرياء وعلى المجتمع الانساني باسره؟

فاجابني بهدوء وسكينة : لم اتزوج وانا كما تراني الان ايها المحسن الكريم . ان حادثاً حدث لي ولامرأتي منذ خمسة اشهر على طريق العاصمة . لقد اصطدم القطار الذي كان يقلّنا اليها اصطداماً

عنيفاً فخسرت رجليّ وفقدت امرأتي عينيها كما ان غيرنا فقدوا بعض اعضائهم وغيرهم خسروا حياتهم .

اننا نشكر الله الذي ابقانا احياء رحمة باطفالنا .

فقلت له : انت تشكر الله على محنتك وتؤثر الحياة عَلَى الموت رغماً من كسحك وفقرك ؟

فاجابني : نعم اشكره تعالى ولا اتذمر من حياتي ولا من هذه التجربة التي حصلت لي لعلني وانا مقعد بائس انفع لنفسي وللانسانية .

ان هذا الكسيح المتسول القى عليّ امثولة رائعة فتركته شاكراً ودخلت مخدعي واخذت الوم نفسي قائلاً :

ان رجلاً جاهلاً كهذا يصاب بمحنة اشد ايلاماً من محنتي ويعنى بمداواة نفسه وانا انا الشاب الراقي المثقف لا ادري كيف أُعنى بمداواة نفسي ؟

لماذا لا اجد مثله راحة وصبراً .

لماذا لا اعتقد ان انفصالي عن الحبيبة قد يكون اسلم عاقبة لي كما ان هذه العقبات الكؤود التي تعترضني الان قد تؤول الى خيري وسعادتي

ان هذه الامثولة جعلتني انام تلك الليلة نوماً هادئاً . وعند الصباح ذهبت الى محلي التجاري واشتغلت بهدوء وعناية حتى الظهر .

ثم عادني شبح اليأس وخيم عليّ . فخرجت من المحل لاسرّي عني ومشيت الى البرية القريبة وصعدت قمة تطل عَلَى العاصمة الجميلة وعلى ابهج المناظر الطبيعية .

فاخذت اجيل طرفي في تلك المشاهد الخلابة التي لم يؤثر جمالها الفتان في نفسي اقل تأثير .

فعندئذ قلت : هل يعقل ان تكون هذه الارض الجميلة الحاوية امثال هذه المشاهد الفاتنة لا تستفزني ؟

وهل يعقل ايضاً ان اكون عائشاً في هذا الوسط الراقي في قلب هذه العاصمة العامرة التي تعج بالقصور وربات الخدور وبالمتاحف والزخارف وباندية العلم ومسارح اللهو وبكل ما هو جميل ومفيد ولا اجد فيها ما يلذني ؟

وهل يعقل ان المخلوقات جميعها لا توازي مخلوقة واحدة ؟ فلماذا اذن لا ابصر غير جمالها ولا احفل الاّ بها ؟

ان حبها ولا شك اعلّ قلبي واعمى بصيرتي ولهذا السبب لا انظر جمال الوجود .

اقسمت وانا على تلك الاكمة ان اداوي علتي مهما كلفني الامر وان اطرح عني هذا الحب الزائف خارجاً .

فبقيت سنة كاملة احارب ذاتي حتى انتصرت انتصاراً باهراً على اهوائي ونزعاتي .

. . .

ان مجرد اعتقادي بان الحب الذي يؤلم ويشقي لا يجب ان يعد حباً بل مرضاً كان كافياً لتشديد عزيمتي وتمهيد العقبات امامي .

وكان دوائي الناجع الذي ابرأني من كل الم تتركب مواده بما يأتي :

اولاً : اخذت اسأل نفسي :

لماذا لا ازال احب تلك الفتاة حباً يقرب من العبادة وهي بملء ارادتها قطعت مواصلتي ولم تعد تشعر بحبي ؟

لماذا لا اقدر ان اعيش بمعزلٍ عنها كما قدرت ان تعيش بمعزل عني ؟

لماذا لا اعلق غيرها كما علقتها ؟

لماذا لا اقوى على نبذها كما نبذتني ؟

لماذا لا اقتنع بانني لست لها ولا هي لي ؟

ما هي اشد فكرة تؤلمني في حبها ؟

اليس اشد ما يؤلمني ان اتخيلها تحب غيري ؟

فيجب عليّ اذن ان اعوّد ذهني ان يتمثلها ليس فقط بجانب رجل تحبه بل هي زوجته وام اولاده .

فمتى تعودت هذا التفكير ولو صعب علي اولاً يهون آخراً ولا يعود يؤلمني حتى ولو امسى حقيقة راهنة .

ان من يتوقع خطباً مهما كان جللاً يهون عليه .

. . .

وثانيا اخذت اتساءل

لماذا لااقدر ان استغني عن حب لم اجن منه غير الالم والشقاء ؟

وعلى افتراض انني جنيت لذة لا المّا ولم يعد ذلك باستطاعتي الان افلا اتبع فلسفة الحياة القائلة :

اذا لم يكن ما تريد ارد ما يكون .

واحول ذهني الى لذة غيرها من لذات الوجود

لماذا لا اسعى وراء لذة العمل ؟ افلا اقدر ان اكسب مالاً وجاهاً واعمل خيراً لنفسي وللناس ؟

لماذا لا اجدّ وراء لذة العلم؟ افلا افيد نفسي والانسانية بمعارفي اذا كنت عالماً خطيراً ؟

لماذا لا اهتم بمداواة نقائصي وتقويم اعوجاجي افلا اجد لذة باصلاح عيوبي ؟

لماذا لا انبذ محبة الذات المرتكزة على الانانية لأتذوق لذة المحبة الخالصة القائمة على التضحية .

لماذا لا اسعى وراء اللذة الروحية لذة اكتساب الفضائل وتثقيف النفس ؟

لماذا لا اصرف عمري متفائلاً فاشعر ماحييت بلذة التفاؤل ؟ فاعتقد بحسن مستقبلي بدلاً من اعتقادي بسوء مصيري .

من انا ؟ من اوجدني ؟

أليس الذي اوجدني اوجد مثلي ملايين من الناس ؟

هل كان وجودي سبب شقائي ؟

او ان شقائي مسبب من عدم تفهمي دقائق الحياة .

اذن يجب عليّ ان اعرف نفسي هل انا صالح ام طالح؟

فاذا كنت صالحاً أفلا امنح ثواباً عَلَى صلاحي ؟
اذن كل ما يحدث لي يجب ان اعتقد بأنه يؤول الى خيري .

واذا كنت طالحاً فيجب ان اعتقد ايضاً بان كل ما يحدث لي هو بمثابة انذار كي ارتدع عن غبي وارعوي عن جهالتي .

وعلى كلا الحالين تعود الفائدة اليَّ . لان العناية الالهية دائماً تقرب اليَّ ما ينفعني وتبعد عني ما يضيرني .

هكذا اخذت اداوي نفسي حيناً بالحكم والمواعظ وحيناً بتفرغي للاشتغال بالاعمال المادية والادبية .

. . .

ان الجمجمة التي كلمتك عنها لعبت ايضاً دوراً خطيراً في ابلالي لأنني كنت كلما دخلت غرفتي اجدها امامي على المنضدة . واتخيلها كأنها تعظني دائماً بان اخلد الى السكينة .

وكم خلتها تهمس باذني قائلة :

كن عاقلاً واعلم ان دوام حال من المحال . اتبع فلسفة الحياة التي تقضي عليك بان تدع خارجاً كل ما يؤذيك ولا تعنى الا بما يفيدك ويغنيك .

ومنذ ذلك الحين تفرغت لتجارتي التي اهملتها زمناً طويلاً واصابتني من جراء ذلك خسارة جسيمة .

وبعد مرور عام على مواظبة واجتهاد في ملاحقة اعمالي عوضت خسارتي بتمامها . ثم ابتدأت التقدم في اشغالي تقدماً مستمراً .

ولما شعرت بلذة الانتاج عشقت العمل والفته . فسلوت غرامي وجميع متاعبي .

وبعد حين شعرت بلذة الحياة الاجتماعية التي كنت قد فقدتها ابان محنتي وتخليت عنها مؤثراً ان اعيش وحدي بلا انيس ولا سمير .

فتاقت نفسي الى معاشرة الناس واخذت اتاب الاندية العلمية والحفلات العيلية والمسارح والمراقص وغيرها . وصرت اجد لذة وجمالاً في كل شيء

عندئذ ايقنت بأنني كنت على ضلال عندما كنت اعتقد ان تلك الفتاة كانت تساوي في نظري كل الوجود وهي ليست بالحقيقة الا ذرة صغيرة من ذراته .

وقد نظمت ابياتاً اذكر بها خطأي لا تزال بذاكرتي وهاهي على علاتها :

يجول بخاطري زمن التصابي كجولات الاسنة والحراب
واذكر صفحة الماضي فيمسي فؤادي في اكتئاب واضطراب
حسبت العمر زهواً مستمراً وما جاء الحساب على حسابي
خطوب الدهر قد ذهبت ولكن خيال الخطب يظهر في كتابي
فكم خلت الصواب بكل امرٍ وما انا في الامور على صواب
هي الايام مرآةٌ ترينا بنضج العمر اغلاط الشباب

وكم كنت اعتقد وانا تحت وطاة اليأس والقنوط انني ولا شك بعد ما حدث لي سوف اقضي عمري كله دون زواج .

ولكن عند ما دنت الساعة لم ارَ نفسي الا متزوجاً

وها انا الان اعيش وامرأتي بامن وسلام نتآلف في السراء والضراء ونتعاون في تدبير الامور وتهذيب الابناء .

...

والان كلما ذكرت غرامي القديم الذي سبب لي شقاءً كثيراً اضحك من نفسي دون ان الومها . لأنني كنت وقتئذٍ في غضارة شبابي وفي عهد هوسي وغروري لا في عهد تفهمي حقائق الحياة .

ثقي يا سلمى انني لم اسلك طريق الحكمة والخبرة الا بعد ان حنكتني الايام وصقلتني التجارب

وهكذا انتِ اليوم مثلي بالامس . لكن تجارب الحياة ستعلّمكِ مثلما علمتني . فتسلحي بقوة الارادة والثقة بالنفس ولا شك بانكِ ستنتصرين على مصاعبك .

اقبلي عظتي فهي عظة مخلص خبير وثقي بالفرج القريب وبما يخبئه لك الغد . ان الغد لكِ

سلمى — لقد وعيت قصتك وحفظت مواعظك في قلبي وأعدك بأنني عزمت ان اجابه شدائدي مهما كانت وطأتها وان امحو من ذاكرتي فكرة التسليم وفكرة الانتحار اللتين كلمتك عنهما سابقاً .

وسوف انصب امامي فكرة واحدة هي فكرة الانتصار على متاعب الحب وكل متاعب الحياة .

الحكيم — حسناً تصنعين فاعملي لهذه الغاية وقريباً تجنين ثمار عملك

ثم ودعها وذهب كلٌّ الى منزله .

اليوم الحادي عشر

كيف اعلنت سلمى الحرب على اهوائها

في اليوم العاشر اقسمت سلمى بعد ان ودعت الحكيم بأنها لا تقابله الا بعد اهتدائها الى طريق النجاة .

فاعلنت حرباً ضروساً عَلَى اهوائها وبقيت شهرين كاملين تناضل مناضلة المستميت

و كانت كلما اجتازت محنة تقع في ماهو اشد منها و كلما نهضت من عثرة تمنى بعثرة اروع منها . لكنها لم تعدمُ ثقتها بنفسها وظلت تكافح الى ان وجدت ابواب الرجاء مفتوحة امامها .

فعندئذ ذهبت الى الحكيم لتعلمه عما حل بها وتستشيره بما غمض عليها .

فقصدته الى بيته وفور وصولها سألها عن حالها فقالت : انا منذ اجتماعنا لآخر مرة احارب اهوائي و يعلم الله انني قاسيت اهوالاً كثيرة دون ان ينثني عزمي . وقد قابلت حبيبي مراراً وصارحته بقطع مواصلته قطعاً باتاً

ومنذ ايام التقيت به في حديقة الصنائع · فاخذ يعاتبني على جفائي · ثم ابتدأ يناقشني مناقشة حادة · وهذا بعض ما قاله لي :

يا سلمى : انت فتـاة مثقفة ابنة العصر العشرين عصر النور والمدنية والحرية لا يجب ان تنظري في الامور كما ينظر ابواك ولا ان تعلقي الاوهام التي دعاها الاجداد فضائل وما هي بالحقيقة غير قيود وسلاسل

ما هذه الفضيلة التي تقوم على امتهان الجسد وقمع الطبيعة البشرية ؟

ما هي نتيجة الزواج المكره واتباع الشرائع الخيالية الواهية

أليس الحب الحر المتبادل هو اشد نفعاً للناس من كل ذلك ؟

فبدلاً من ان تشهري حرباً عواناً عَلَى ملذاتك يجب ان تتنعّمي بها ·

من تخافين ؟

أتخافين والديك ؟ أتخافين كلام الناس ؟ او تخافين الشرائع التي تقيدك وتنذرك بنار جهنم ؟

هل تخافين اوهاماً وخيالات لا وجود لها الاّ في مخيلة القاصري المدارك ؟

فأجبته : لااخاف احداً لا والديَّ ولا كلام الناس ولا جهنم بل اخاف منك وحدك لأنني بعد ان بلوتك وخبرت مبادئك التي لا تنطبق عَلَى مبادئي ودرست خلالك التي لا تألف خلالي آثرت ان ابتعد عنك ابتعاداً لا لقاء بعده ·

فاذهب في سبيلك لا انا لك ولا انت لي · فاجابني : هل يعقل ان اكون كذلك · اما كنت منذ تعارفنا معجبة كل الاعجاب بذكائي ومعارفي وطلاقة لساني وخفة روحي ·

فهل انا اليوم غيري بالامس ؟

او هل امسيتِ تنظرين اليَّ بغير عين وتحكمين عليَّ بغير ذهن ·

فأجبته لاازال انظر بعيني واحكم بذهني بيد اني كنت ابصر القشور فصرت ابصر اللباب وكنت احكم على جمال الوجه فصرت احكم على جمال الروح ·

فأجابني بامتعاض : من علّمكِ هذه الفلسفة الواهية التي لا ترتكز على الاساس الطبيعي وهو جوهر الوجود

ما هي الروح وما هو جمالها ؟

دعينا من النظريات العقيمة التي لاندركها وتأملي في نزعات الطبيعة التي اوجدتنا .

اذا لم تلقح الشجرة لا تعطي زهراً او ثمراً جميلاً .

ان اللذة والجمال والحياة كلها تتولد من تلقيحها لا من عقمها وكبح جماح رغباتها

وما هي نتيجة الطبيعة المكبوحة ؟

أليست هي الموت وفناء الاجناس واضمحلال الحياة من الارض ؟

الا تعلمين ان اللذة التي تحاربينها وتريدين ان تبتعدي عنها هي كل شيء في هذا الكون لأنها هي الحياة بعينها

اذن انت لا تقاومين اللذة الطبيعية بل تقاومين الحياة التي اوجدها الله انت تقاومين الله .

فأجبته : انت محام لا يصعب عليك كثيراً ان تجعل الحق بطلاً والبطل حقاً . ولهذا السبب ارجو منك ان تدعني وشأني ولا تدخلني في تجربة .

ثم تركته وانصرفت الى منزلي .

ونهار امس صادفته على طريق الشام فطلب مني بالحاح ان اسمع كلمته الاخيرة. فقال بعد اللتيّا والتي :

هل انت مصرّة على قطع مواصلتي ورفض طلبي؟ فأجبته : نعم . فقال بحنق : من هو هذا الخائن اللئيم الذي حولك عني ولواك عن محبتي ؟

فأجبته : لا احد حولني عنك سوى عقلي الذي انذرني بالمحافظة على شرفي . لان الشرف والحب الحر الذي تدعوني اليه متناقضان وانا لست مستعدة ان اضحي بشرفي في سبيل حبي .

ولهذا السبب سلمت زمامي الى عقلي الذي انتصر عليّ وعليك

فقال : ان فكرة الشرف هي فكرة سخيفة تقتل رغباتك دون ان تنالي اجراً ولا مغنماً .

وهل فاتك ان من قتل رغباته فقد قتل نفسه ؟ فأجبته : فكّر بما تشاء . اما انا فلا ارجع عن مقاطعتك مهما كلفني الامر .

وعندئذ خاطبني متأثراً : اني آسف جداً على زهرة صباكِ تعبث بها الايام وتذويها الطبيعة دون ان يتسنى لي اجتناؤها او عَلَى الاقل شم رائحتها الذكية .

ثم ودعني حزيناً دامعاً . فتأثرت لحاله .

والان تراني ايها الحكيم خائفة ان يؤلمه جفائي كما آلمني سابقاً جفاؤه وان يستسلم لليأس والقنوط

وبما أنني خبرت الجفاء في الحب وعرفت ما يتركه في القلب من عوامل الاسى والاضطراب يعز عليَّ كثيراً ان اكون سبب تعسه وشقائه . خصوصاً عندما افكر كيف كانت حالتي لو لم تتدار كني بحكمك ومواعظك .

الحكيم — لا تخافي عليه . بل ثقي ان جفاءك لا يذهب به الى اليأس ولا يزعجه طويلاً . لان حبه ليس صادقاً كحبك ولا اخلاقه سامية كاخلاقك ولا صفاته حميدة كصفاتك . واذا شعر بما يزعجه طويلا فذلك من جراء حبه لذاته لا من جراء حبك

ولو كان بوسعك ان تعرفي دخائله لوجدته الان يقول في نفسه: يا لها من فتاة قوية الارادة طاهرة الذيل لم يؤثر عليها جمال شبابي ولا قوة منطقي ولا دهائي لم اقدر ان استبيحها كما استبحت غيرها

سلمى — اود من صميم الفؤاد ان لا يضيره ابتعادي كما تعتقد لأنني لا اريد به سوءاً ولا ارغب له الا الخير . اني احبه حباً جماً ولم ابتعد عنه الا لبعض نقائصه وعدم احترامه للشرائع .

والآن مضى كل شيء لكن اسمح لي ايها الحكيم ان اسألك

ما هو رأيك الصريح في الشرائع الانسانية وعلى الاخص الشرائع الحاضرة

هل هي مفيدة للبشرية او عالة عليها .

الحكيم — ان سؤالك يا سلمى يستغرق درساً كثيراً وتمحيصاً طويلاً لكنني اقول لك بصراحة وايجاز . ان الشرائع لازمة للناس لزوم الغذاء لأجسامهم . ولا اظن انهم يستغنون عنها مهما بلغوا من الرقي والتمدن .

ولكن قولي هذا لا يعني ان الشرائع يجب ان تثبت على كيانها الى الابد بل هي خاضعة لسنة النشوء والارتقاء كما تخضع العلوم والفنون والصناعات المختلفة .

ومن يتصفح تاريخ الشرائع البشرية منذ نشأتها حتى الان يرى انها لم تخلق دفعة واحدة في عقول الناس بل شيئاً فشيئاً بقدر احتياجهم اليها .

ولهذا السبب فهي تتطور تدريجياً كلما تطورت اخلاق الناس وترتقي كلما ارتقوا في علومهم ومداركهم .

كيف لا وهي مظهر من مظاهر نفسياتهم وعامل من عوامل بيئاتهم واخلاقهم .

فكما ان الصوان لم يعد سلاحاً قاطعاً للانسان بعد ان اكتشف الحديد واصطنعت الخناجر والسيوف وسائر الالات الحادة . وكما ان هذه بدورها لم تعد جزيلة النفع بعد اختراع البارود واصطناع البنادق والمدافع وما شاكلها . فهكذا هي الشرائع القديمة لم تعد اليوم سلاحاً روحياً للناس بعد ان سبروا غورها وحلوا رموزها ثم اهتدوا الى ما هو احسن منها .

وكما انه ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تحل فيه الكيمياء محل اسلحتنا ومعداتنا الحربية الحاضرة فتصبح الحروب المقبلة بالغازات والسوائل الكيماوية لا بالقنابل والقذائف النارية . هكذا ولا شك سيأتي يوم يعتنق الناس فيه شرائع جديدة تحل مكان شرائعنا الحاضرة التي تصبح بالنسبة اليهم كنسبة الشرائع القديمة الينا .

ولا شك ان بعض ما نعتقده اليوم حقاً سينظره الاحفاد بطلاً اما الشرائع الحاضرة فانها ولو كانت في نظري غير بريئة من الشوائب ولا معصومة من الخطأ فانا افضل اتباعها الى ان يتسنى للمشترعين والمفكرين ايجاد ما هو انسب منها

ان الطفرة على الشرائع والثورات على الانظمة الاجتماعية قبل

اوانها مضرة جداً لأنها تهدم كيان الاجتماع وتقذف بالناس الى حمأة الفوضى فالتقهقر

ماذا يحل بنا لو قمنا الآن نهدم بيوتنا القديمة قبل ان نبني ماهو افضل منها .

أليست هذه البيوت التي نسكنها افضل من الاكواخ والمغاور ؟

هكذا يبدو لي ان اتباع الشرائع الحاضرة انفع لنا ما زلنا غير مهتدين الى شرائع تفضلها .

ان سلم الارتقاء الادبي والمادي تشبه سلالم البيوت . فمن رام ان يصعد الى طبقة لا يقفز قفزاً بل يصعد درجة درجة ليبلغ مرامه .

ومن يحاول الصعود قفزاً لا ينجو من السقوط . هكذا الناس في شرائعهم وقوانينهم يصعدون سلم الارتقاء الادبي درجة درجة لا قفزاً كي يتحاشوا العثرات .

. . .

اجل انني لست من المعتقدين بكمال الشرائع ولا من الناقمين عليها الساعين لهدمها بسبب بعض نقائصها . بل من التابعين لها

المحبين لاصلاحها الآئل طبعاً لاصلاح الجنس البشري .

. . .

اما ما يختص بما قاله لكِ ذلك الشاب : ان الشجرة لا تعطي زهراً بديعاً ولا ثمراً جميلاً دون ان تلقح فهو كلام حق لا غبار عليه ولولا ذلك لما كان للوجود معنى

لكنّ الشجرة الطيبة لا تعطي ثمراً طيباً اذا لم نحسن تلقيحها .

ألم اقل لك سابقاً انني لا ادعوكِ الى التبتل بل الى معرفة اختيار الشاب المناسب لكِ

واذا انت احسنتِ الاختيار فذلك لا يعني انكِ تقاومين الطبيعة البشرية ولا الحياة التي اوجدها الله لتنمو وتتناسل على الارض .

بل بالعكس تكونين من اشد مناصري الحياة الانسانية على نموها وتحسينها .

سلمى — انني واثقة بكلامك وواعية حكمك ومواعظك لكنّي اقر واعترف امامك بأنني ولو كنت بملء ارادتي قد قاطعت ذلك الشاب الذي لا يستحقني من جراء تصرفاته الشائنة فلا ازال كلما خطر ببالي او

وقع نظري عليه اشعر بارتعاش في عروقي وحب مبرح في قلبي لا اقوى على كبحه حتى الآن .

واود لو يتسنى لي ان انظر اليه كما انظر الى غيره من الناس وافتكر به كما افتكر بهم ايضاً دون ان يعتريني رعشة ولا يهزني هوىً .

الحكيم — هذا امر طبيعي ياسلمى ولا مناص منه الا بقوة الارادة ومرور الزمن . ولكن ثقي انكِ قد شفيت من مرض الحب وبلغت دور النقاهة غير اني انصحك بان تتجنبي موقتاً كل ما يؤلمك ويؤثر بكِ الى ان تستعيدي قواك بتمامها .

ان النقاهة من الامراض الادبية كالنقاهة من الامراض المادية لا تأتي دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً

فالى الامام يا سلمى الى الامام .

سلمى — كن واثقاً ايها الحكيم انني سأجاهد الى النهاية لأن قصتك ومواعظك واختباراتك العديدة اثرت في نفسي تأثيراً عظيماً حتى امسيت اعتبرها عدتي في النوائب وسلاحي على المصاعب .

ومتى فتح الله بوجهي ونلت نصراً مبيناً اعود اليك لا لتأدية الشكر فقط بل لأريك ايضاً نتيجة صنيعك

اليوم الثاني عشر

اكليل الغار

مضى زمن يقارب العام دون ان يرى الحكيم وجه سلمى لكنه كان طيلة هذه المدة يستعلم عنها و يتنسم اخبارها

وفي صباح يوم من ايام اذار سنة ١٩٣٣ جاءت سلمى الى منزله ومعها شاب رزين طلق المحيا تبدو على وجهه ادلة الذكاء والنشاط وفور مقابلته لم تترك له مجالاً ليسأ لها عن حالها بل بادرته من تلقاء نفسها بهذا الكلام

جئت ايها الحكيم بعد غيبة طو يلة لأشكرك على صنيعك ولأظهر لك امتناني لاعتنائك بي في ايام محنتي واسدائك اليّ تلك النصائح الغالية التي لولاها لما حملت اليوم اكليل الغار ولا اهتديت الى طريق الحق والخلاص

اجل لقد كلفني انتصاري مشقة عظيمة انت تعلمها .

والان جئت لأعلمك انني والحمد لله وجدت ضالتي المنشودة ثم اومأت بيدها الى رفيقها وقالت بفرح وحبور ها هو امامك :

انه لعمري شاب اديب يحمل في رأسه دماغاً نيّراً وضميراً حياً ويحضن في صدره شجاعة مقرونة بالحلم وعاطفة مزدانة بالاخلاص وكرم الاخلاق .

ها هو الرجل الذي وعدتني به في بعض مواعظك . وقد صحت نبوءتك وحصلت بفضلك عَلَى كل ما اتمناه .

ومما يدهشني ايها الحكيم انه لم يملك قلبي فقط بل ملك ايضاً محبة والديّ اللذين اصبحا يعطفان عليه كعطفهما عليّ انا .

لقد تمت خطبتنا البارحة . ومتى تقرر موعد عقد الزواج ندعوك لتشرفنا بحضورك

فشكرها الحكيم ثم اخذ يحدث الشاب في شتى المواضيع . ولما خبره وعرف ما ينطوي عليه من الادب الجم وكرم الاخلاق هنأهما تهنئة حارة .

قالت سلمى : بما اننا على وشك الدخول في حظيرة المتزوجين أفلا تنفحنا ببعض النصائح المفيدة .

فعندئذ قال لها الحكيم :

ان ايام الخطبة هي ابهج ايام الحياة واكثرها سعادة وهناءة .

فلكي يكون زواجكما سعيداً كايام الخطبة يجب عليكما اتباع هذه النصائح البسيطة ·

اولاً : ان يحب كل منكما رفيقه و يحترمه لان الحب المقرون بالاحترام لا تشوبه شائبة

ثانياً: على كل منكما ان يظهر عطفه واحترامه لعيلة رفيقه وان يتجنب انتقاد افرادها · لان الانتقاد يقود الى سوء التفاهم الذي يؤدي غالباً الى الخلاف المتواصل بين الزوجين ·

ثالثاً : ان لا تتسلط عليكما الغيرة الطائشة التي تنغص الحياة الزوجية وتبعد عنكما السعادة الحقيقية ·

رابعاً : يجب على كلا الزوجين ان يدرس رفيقه درساً دقيقاً ليعلم ما يسره وما يغيظه · وعليه ان يحافظ على عواطفه محافظة فعالة · وان يضحي في سبيل رضاه ما امكنه ذلك · لان الحياة الزوجية الهنيئة لا يحصل عليها الزوجان بلا تضحية ·

فاذن يجب على كل منكما ان يعلم جيداً بان التضحية هي وجدها مبعث الرجاء والمحبة واساس السعادة الدائمة ·

ولا يسهى عن بالكما انكما مهما تشابهتما في الاخلاق والصفات فلا بد ان يكون بينكما تفاوت في بعض الاميال والنزعات فيجب

ان تثقفا في كل الامور باخلاص ومودة لابخصام وشدة .

خامساً : لا تصرفا فوق طاقتكما واذخرا شيئاً من دخلكما للايام السوداء كي تقضيا العمر بمنزل عن الحاجة التي هي من اعظم اسباب التنافر والشقاق بين الزوجين .

سادساً : يجب ان لا يعتقد الزوجان ان ليس عليهما غير الواجبات الزوجية . فبصفتهما عضوان من اعضاء الاسرة الانسانية فعلى كل منهما ان لا ينسى واجباته نحو اهله ولا نحو اصدقائه ولا نحو النادي الذي ينتمي اليه ولا نحو البيئة التي يعيش فيها .

سابعاً : ان الحياة الزوجية ليست حياة عبودية واستبداد وخيانة بل حياة مساواة واخلاص ومحبة . فمتى عرفتما ذلك وعشتما متساهلين لا تفوتكما السعادة .

ثامناً : اذا اخطأ احد الزوجين بامر من الامور فلا يجب ان يجابهه الاخر بالعنت والشتيمة بل بالرفق المقرون بالارشاد الهادىء ومن لا يرعوي بالنصائح اللطيفة لا يرعوي بالحراب

وعندي ان الاهمال المطلق خير من الصياح الدائم .

تاسعاً : لاشيء يزعج الحياة الزوجية مثل (التقيق) المتواصل الذي يضر كثيراً ولا يفيد شيئاً .

ان النفيق للضفادع لا للناس

و يا ليت بعضهم او بالاحرى اكثرهم يفقهون ذلك و يعلمون ايضاً انهم (بنفيقهم) المتواصل على ازواجهم او على زوجاتهم او على اولادهم او على خدمهم او على غير ذلك انهم لايستفيدون شيئاً بل بالعكس يعرقلون حياتهم الزوجية و يهدمون بايديهم صرح سعادتهم و ينغصون عائلاتهم و يشتتون افرادها بكثرة تذمرهم وشكواهم

عاشراً : لكي تبقى الصلة الحبية بين الزوجين زاهية زاهرة الى طور الكهولة والشيخوخة فيجب ان ترافقها الصلة الروحية اي ان تتحد روحاهما بحب ادبي لا يشيخ ولا يهرم .

وهذا الحب الادبي الروحي لا ينمو بين الزوجين على مرور الاعوام الاّ بتناسب الاميال والاذواق و بقوة المحافظة على حسن المبادىء و كرم الاخلاق .

هذا بعض ما املاه عليّ اختباري في الحياة الزوجية ولم تزل هنالك امور كثيرة اغفلتها او بالاحرى لم اختبرها بعد

ان الحياة مدرسة الاحياء من البداية الى النهاية

واللبيب اللبيب في نظري هو من خبر ذلك ووعاه وعرف ان يستفيد من دنياه

ثم وجه الحكيم كلامه الى سلمى وقال لها :

لا تعتقدي يا سلمى ان متاعب الحب هي كل متاعب الحياة :

لم يزل امامك متاعب كثيرة . متاعب الحياة الزوجية — متاعب تربية البنين — متاعب نفقات المعيشة — متاعب تدبير المنزل — متاعب السياسة والاجتماع — متاعب متاعب لا تحصى — لكنها كلها مفيدة ومستحبة عند من يدرك سر الحياة ويعلم انها جهاد بجهاد .

والبطل المجاهد ينال وحده اكليل الغار .

فاجابت سلمى وخطيبها بصوت واحد :

اذن سنجاهد الى النهاية لعلنا ننال برعايتك وجهادنا اكليل الغار .

ثم ودعاه شاكرين وانصرفا .

انتهى

فهرست

صفحة

اليوم الاول

الحكيم على طريق النزهة ٥
في الخيمة ٦
حديث التعارف ٩
سلمى تقص حديث غرامها الابتسامة الاولى ١٣

اليوم الثاني ٢٠
الحديث الاول ٢١
اللقاء الاول ٢٣
اللقاء الثاني ٢٥

اليوم الثالث

وحدة ومناجاة والم ٢٩

اليوم الرابع

ارق وهذيان ٣٣

صفحة

استئناف الحديث، القبلة الاولى ٣٦
معرفة والديّ بغرامي ٤٤

اليوم الخامس

الحكيم وحده يتأمل في الحب الذي لا تتآلف فيه الاخلاق ٤٨

اليوم السادس

سلمى تنهي قصتها والحكيم يتلو عليها بعض تأملاته ٥٢

اليوم السابع

سلمى وحديث حبيبها عن الزواج الطبيعي ٦٢

اليوم الثامن

الحكيم يقص على سلمى موجز حديث غرامه ٧١

صفحة		صفحة	
	❋ اليوم التاسع ❋		❋ اليوم الحادي عشر ❋
٨٤	الحكيم يخبر سلمى عن عذابه و يأسه بعد جفاء حبيبته	١١٨	كيف اعلنت سلمى الحرب على اهوائها
	❋ اليوم العاشر ❋		❋ اليوم الثاني عشر ❋
١٠١	الانتصار على اليأس	١٢٩	اكليل الغار

انتهيت من وضع هذا الكتاب في ١٢ اذار سنة ١٩٣٣ في مدينة بيروت العامرة

توفيق حسن نادر
الشرتوني

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	٧	يزيدك	و يزيدك
٦٣	١٣	الحفل	الحقل
٨٣	١	الحفاء	الجفاء
١٢٧	١	لاصلاحها	اصلاحها
١٢٨	٤	يعتر بني	تعتريني
١٣٣	٢	و يعملون	و يعلمون

DATE DUE

A. U. B. LIBRARY

[redacted]
السرتوني، توفيق حسن
الحكيم وسلمى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038173

892.78
Sh562hkA
c.1